

عبد الحميد كشك

في
رَبَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء السابع

المكتبة المصرية الحديث

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَقَائِقُ يَقْرُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْشِبُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

المفردات : ﴿عداوة﴾ العداوة والمحبة صفتان من صفات النفس يظهر أثرهما في القول والعمل . ﴿قسييسين﴾ : واحد قس ، وقسييس ، وهو رئيس من رؤساء النصارى والأصل فيه أن يكون عالماً بدينهم وكتبهم . ﴿رهبانا﴾ : واحده راهب وهو العابد المنقطع للعبادة . ﴿تفيض من الدمع﴾ : تمتلئ دمعاً حتى يتدفق من جوانبها لكثرتة . ﴿فأنايبهم﴾ : جازاهم .

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثتهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه .

وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعتنموا . واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

قوله تعالى ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ ، وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق ، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسخروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله) .

وقوله تعالى : ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة ، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾^(١) وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ .. أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، واحدهم قسيس وقس أيضا وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة ، وهى الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قوله تعالى : ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ أى أن من صفاتهم التواضع ، والكبر والاستكبار هو بطر الحق وغمط الناس . قال تعالى : ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾^(٢) وقال ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر)^(٣) . لذلك وصفهم الله تعالى بعد ذلك بقوله : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ أى من القرآن ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ حتى يتدفق من كل جانب فيضانا ناشئا مما عرفوا من الحق الذى أنزل على محمد ﷺ إذ هو مصدق لما معهم من الكتاب ومطابق لما وصف عندهم ، ولم يمنعهم عن ذلك عتو وعناد متأصل فيهم ، هذا حالهم ، أما مقالهم فيقولون : ربنا آمنا بك وبرسلك ، خصوصا محمد ﷺ ، فاكبتنا مع الشاهدين الذين يشهدون يوم القيامة للأنبياء والرسل وهم أمة محمد ﷺ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾^(٤) أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو ؟ ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان ذلك الرسول المبشر به فى كتابنا إذ هو روح الحق وإنا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت نفوسهم وطهرت أرواحهم بالعقائد الصحيحة والمثل العليا وهم أتباع هذا النبى الكريم .

والمعنى : لا مانع من الإيمان بعد أن ظهرت الحجة ووضح الطريق ، ونحن نطمع فى أن نكون فى عداد الأبرار والأخيار من أصحاب محمد ﷺ فأثابهم الله وجازاهم بما قالوا عن عقيدة راسخة ونفس مطمئنة راضية وآثام جنت تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبي الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ، هؤلاء المسيحيون الأحرار الذين نظروا فى تعالم المسيح الحقيقية فوقفوا على سرها ، وتكشفت لهم جنباتها ، ورزقوا فكراً حراً ، وعقلاً رشيداً ، وروحاً طيبة ، بعيدة عن التعصب تدين بمبدأ

(١) الآية ٢٧ من سورة الحديد .

(٢)

(٢) الآية ٢٩ من سورة النحل .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٥) وفى الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفى الفتن (١٣) وفى التوحيد (٢٤ ، ٣٦) وأخرجه مسلم فى الإيمان

(١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦) وفى الفتن (٥٢ ، ١١٦) وأخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦)

والترمذى فى الفتن (١٧) وفى جهنم (١٠) وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الزهد (١٦ ، ٣٧) والدارمى فى المقدمة (٨) والإمام

أحمد فى (١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) وفى (٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٥) وفى (٣ ، ١٢ ، ١٧) وفى

(٤ : ١٥١) وفى (٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩) .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

« الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت »^(١) .

أما السواد الأعظم من المسيحيين الذين غرقوا في بحار التعصب ولم ينظروا ولم يفكروا وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أو من عرفوا الحق ، وأعرضوا عنه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فهوؤلاء وهؤلاء يقول الله فيهم ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على صدق نبينا ، «أولئك هم أصحاب الجحيم» الملازمون لها .

هلك المتطعون

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
﴿١٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

المفردات ﴿ طيبات ﴾ : ما تستلذه النفس ويميل إليه القلب . ﴿ ولا تعتدوا ﴾ : لا تتجاوزوا الحدود المرسومة لكم . ﴿ طيبا ﴾ : غير مستقذر حساً أو معنى . ﴿ اتقوا الله ﴾ : خافوه . ﴿ أنتم به مؤمنون ﴾ : أى مصدقون بواحديته .

جاء في الصحيحين عن عائشة رضی الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : (ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)^(٢) .

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبي ﷺ : (لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني) .

وعن ابن عباس أيضاً أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت على اللحم ، فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ .

(١) أخرجه الترمذى في العلم (١٩) ، وابن ماجه في الزهد (١٥) .

(٢) أخرجه البخارى في النكاح (١) . ومسلم في النكاح (٥) . والنسائى في النكاح (٤) . والدارمى في النكاح (٣) . والإمام أحمد في

(٢ : ١٥٨) وفى (٣ : ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥) وفى (٥ : ٤٠٩) .

أحكام فقهية

ذهب الشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً ولقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم - الإمام أحمد بن حنبل - إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس وكما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، ثم قال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم ﴾ (٢) ، وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير . والله أعلم .

أقوال أخرى

قال ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهموا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاص ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : (إن لأنفسكم حقا وإن لأعينكم حقا ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك سنتنا ، فقالوا : اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله ، ولها شاهد من الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك والله الحمد والمنة . وقال أسباط عن السدي في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزداهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا عشرة منهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملاً فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فحن نحرهم ، فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء ، فكان لا يذنو من أهله ، ولا يذنون منه فأتت امرأته عائشة رضي الله عنها ، وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ فقالت : وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع على زوجي وما رفع عنى ثوباً منذ كذا وكذا ؟

(٢) الآية ٢ من سورة التحريم .

(١) الآية ١ من سورة التحريم .

قال : فجعلن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال : (ما يضحكن) قالت : يا رسول الله إن الجولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عنى زوجى ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : (مالك يا عثمان) قال : إني تركته لله لكى أتجلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقال رسول الله ﷺ : (أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك) ، فقال يا رسول الله : إني صائم فقال : (أفطر) فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الجولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حواء فقالت : إنه أتانا أمس وقال رسول الله ﷺ : (ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم إلا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عنى فليس منى) ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ﴾ يقول لعثمان لا تجب نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضيق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف ، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تتجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه لا إفراط ولا تفريط ولهذا قال : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ثم قال : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ ، أى في حال كونه حلالاً طيباً ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانه ، ﴿ الذى أنتم به مؤمنون ﴾ .

وما أعظم قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾^(٣) .

أحكام تتعلق بالإيمان

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ
إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة . (٢) الآية ٣١ من سورة الأعراف . (٣) الآيات ٣٢ ، ٣٣ من سورة الأعراف .

يَجِدُ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

المفردات ﴿ اللغو في اليمين ﴾ : ما يجري على اللسان بغير قصد . ﴿ كفارته ﴾ : أعمال تكفر بعض الذنوب أى تغطيها وتسترها . ﴿ من أوسط ﴾ : المراد الوسط في الطعام بلا مبالغة في التقدير أو الإسراف . ﴿ أو تحرير ﴾ : عتق رقبة .

وردت في اليمين اللغو أقوال نبينا في ما يلي :

قال الشافعي : هو قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله بلى والله . وقيل هو في الهزل ، وقيل في المعصية ، وقيل على غلبة الظن ، وهو قول أبو حنيفة وأحمد ، وقيل في اليمين في الغضب ، وقيل في النسيان ، وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس واستدلوا بقوله ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ أى بما صمتم عليه منها وقصدتموها .

(فكفارته إطعام عشرة مساكين) . يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ، وقوله ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة : أى من أعدل ما تطعمون أهليكم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ أى فى القلة والكثرة . والاعتدال فى كل شىء مطلوب شرعاً ، والأوسطية هى التى بين الإسراف والتقتير ، وقد ذكروا فى مقدار الطعام أن يغذيهم ويعيشهم غداء وعشاء مشبعين من أكل من أكل وسط ، أما الكسوة فخير ما قيل فيها هو ما رآه مالك وابن حنبل وهو أن يعطيهم من الثياب ما تصح به الصلاة ، أما تحرير الرقبة فهو عتقها سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة ، فهو مخير بين هذه الأمور : الإطعام ، أو الكسوة ، أو التحرير ، فمن لم يجد ذلك ولم يستطع إطعاماً أو كسوة أو عتقاً فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعة على الصحيح ، وقد فسروا الاستطاعة بأن يكون عنده ما يزيد على إطعام أهله يوماً وليلة . فإن عجز عن ذلك كله استقر الحق فى ذمته حتى يستطيع ، ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلقتم حلفاً شرعياً وحتتكم ، واحفظوا أيمانكم ، فلا تبدلوها لأتفه الأسباب ، ولا تجعلوها عرضة ، وإن حنتم فاحفظوها بالكفارة ، وإن حلقتم فلا تنسوا ما حلقتم عليه ، ولا تحنثوا إلا لضرورة ، ويكون الحنث فيها أفضل من السير مع اليمين ، مثل هذا البيان الشافى الواضح بين الله لكم آياته وأحكام دينه ليعدكم ويؤهلكم لشكره على نعمه جل شأنه .

أما اليمين الغموس ، وهى التى يقصد بها ضياع حق لمسلم ، أو يقصد بها غش أو خيانة ، فلا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لا بد من توبة ورجوع إلى الله ، مع أداء الحقوق لأربابها ، قال رسول الله ﷺ : (من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو

عليه غضبان) (١) : رواه البخارى ومسلم . يقول الله : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فترل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم * ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) (٢) . وقد ذم الله تعالى كل من يكثر الحلف فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ (٣) فعليك أيها المسلم أن تراعى في الأيمان هذه التوجيهات الشرعية :

١ - لا تحلف إلا لضرورة تدعوك لذلك .

٢ - إذا حلفت فلا تحلف إلا بالله وحده لا شريك له ، فمن حلف بغير الله فقد كفر وأشرك ، أما الذى يحلف بما شاء من المخلوقات فهو الله وحده لأنه خالق الكائنات ، وقد حلف سبحانه بأنواع من مخلوقاته كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، ونفس وما سواها ، كما حلف بالتين والزيتون ، وطور سنين ، والبلد الأمين ، ولكنه لم يحلف بحياة أحد إلا بحياة النبي ﷺ فقال : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) (٤) .

والله ما خلق الإله وما برى
بشرأبرى كمحمد بين السورى
يا سيد العقلاء يا خير السورى
يا من أتيت إلى الحياة مبشراً
وبعثت بالقرآن فينا هادياً
وطلعت في الأكوان بدراً نيراً

٣ - وإذا حلفت فلا تحلف إلا صادقاً ، لأن الحلف بالله كاذباً يعتبر من الكبائر ، وهى يمين الغموس التى قال عنها النبي ﷺ (اليمين الغموس تذر الديار بلاقع) أى خراباً بياباً ، واليمين الفاجرة منفقة للسلعة ، ممحقة للربح ، وإنما سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم جزاء وفاقاً ، لأنه حلف بالله كاذباً متعمداً .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ أى يفصل لكم أحكامه تفصيلاً بيناً واضحاً ، فليكن منكم الشكر له تعالى على ما أنعم به عليكم من البيان ، وتفصيل الأحكام ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليكم حكيم ﴾ (٥) .

تحريم الخمر والميسر وغيرهما

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلُمُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

(١) أخرجه البخارى فى الأيمان (١١ ، ١٧) وفى التفسير (سورة ٣) (٢) وفى الأحكام (٣٠) وأخرجه مسلم فى الأيمان (١٧٦) ،

(٢٢٠) (الترمذى فى تفسير سورة ٤ (٦) ، (٣ ، ٤٩٥) (٥ : ٢١١ ، ١١٢) .

(٢) الآيات ٩٤ ، ٩٥ من سورة النحل . (٤) الآية ٧٢ من سورة الحجر .

(٣) الآية ١٠ من سورة القلم . (٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ
اتَّقَوْا ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا ءَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

المفردات ﴿ الخمر ﴾ : كل شراب مسكر . ﴿ الميسر ﴾ : في أصل اللغة : القمار بالقداح في كل شيء ، ثم غلب في كل مقامرة . ﴿ الأنصاب ﴾ : حجارة كانت حول الكعبة يذبحون قربانهم عندها . ﴿ الأزلام ﴾ : قطع رقيقة من الخشب كالسهم كانوا يستقسمون بها . ﴿ رجس ﴾ : مستقذر حساً ومعنى . ﴿ طعموا ﴾ : طعم الشيء يطعمه ذاق طعمه عن طريق الأكل أو الشرب .

روى أن عمر كان يدعو الله تعالى قائلاً : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فلما نزلت آية البقرة ظل على دعائه ، ولما نزلت آية النساء ظل كذلك على دعائه ، فلما نزلت آية المائدة وسمع قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ ، قال انتهينا .. انتهينا . وكانت هذه الآية هي الفاصلة القاضية .

روى أن عمر قال حين سمع ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام : بعداً لك وسحقاً ، وتركها الناس وأراقوها في الطرقات . وروى عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا وثملوا واعتدى بعضهم على بعض ، فلما صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه ولحيته فيقول : صنع بي أخي فلان هذا ، لو كان رءوفاً بي ورحيماً ما صنع هذا . وقد وقعت بينهم ضغائن فأنزل الله ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ فقال ناس : هي رجس ، وهي في بطن فلان مثلاً وقد قتل يوم أحد ، وفي بطن فلان وقد قتل يوم بدر ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ الآية .

ولعلك تسأل : ما الحكمة في تحريم الخمر تدريجياً .

وما علمت أنها الحكمة العالية ، والدواء الناجع لهذا الداء المتأصل الذي أدمنت العرب على شربه ، فلو حرمت الخمر دفعة واحدة لكان ذلك أدعى لتغيير الناس من الدين كله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ، والذين خالط قلوبهم نور الإسلام وبرد اليقين : اعلموا أن هذا الوصف يوجب عليكم الامتثال لأمر الله والتزام حدود الشرع ، واعلموا أنما الخمر ، وهي ما خامر العقل أى ستره فأستره ، رجس من عمل الشيطان وصنعه وهو عدوكم اللدود ، الذي لا يعمل إلا للشر ، ولا يزين إلا للهلاك .

ولقد خطب عمر بن الخطاب يوماً على منبر الرسول ﷺ فقال : (قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل)^(١) : وهذا أبين بيان في حقيقة الخمر ، يخطب عمر بالمدينة على مرأى ومسمع من صحابة رسول الله ﷺ ، وهم أهل اللسان والبيان ، وأعلم الناس بلغة القرآن ، فلا ينكر أحد عليه ، ولا يستفسر أحد عن نوع دون نوع ، ولا ننسى قوله ﷺ : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)^(٢) ، فإذن كل مادة مغيبة للعقل مهلكة للصحة فهي خمر وإن تعددت الأسماء ، وإذا ثبت هذا بطل رأى القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمرأ .

والنيذ قدما عبارة عن تمر أو زبيب ينقع في ماء حتى يجلو الماء فيشرب ، وهذا حلال حيث لم يختمر ولم يسكر ، وأقرب الأشياء به ما يسمى بالخشاف في مصر ، أما النيذ المستعمل الآن فخمر وحرام ومسكر .

إنما ذلك رجس وقذارة ، وأى رجس أكبر من هذا ، فالخمر والميسر مستقذران حساً ومعنى من ناحية الشرع والعقل ، وهما من عمل الشيطان وصنعه ، فاجتنبوا هذا الرجس واتركوه ، واجعلوه في جانب ، وأنتم في جانب ، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تركية أنفسكم وسلامة أبدانكم .

وبعد هذا يبين الله السر في هذا الأمر ويبين خطرهما في الدنيا والآخرة وضررها اجتماعياً ودينياً .

أما الخطر الاجتماعي فالشيطان ، إنما يريد لكم بشرب الخمر ولعب الميسر أن تقع بينكم العداوة والبغضاء فيقضي على جماعتكم ، ويشتت شملكم ، ويهدم كيانكم ، والإسلام حريص جداً على أخوتكم واتحادكم وتضامنكم وإزالة أسباب الشقاق والنزاع فيما بينكم .

والشواهد على هذا كثيرة واضحة ، ولا غرابة في هذا ، فالخمر تذهب العقل الواعي وتستره ، وهو الذي يدرك قواعد العرف والدين التي تمنعنا عن الشر والوقوع فيه ، فإذا ضاع واستتر ظهر الإنسان بشهوته وطبيعته الحيوانية ، يأتي الدنية ، ويقوم بأحط الأعمال وأقذرها .
والميسر وما فيه من ربح وخسارة بلا عمل ولا تجارة مثار العداوة والبغضاء في نفس الخاسر وحزبه .

(١) أخرجه البخارى في تفسير سورة ٥ (١٠) وفي الأشربة (٢ ، ٥) وأخرجه مسلم في تفسير ٣٢ (٣٣) . وأخرجه أبو داود في الأشربة (١) . والنسائي في الأشربة (٢٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (٧٣ ، ٧٥ ، ٦٤ ، ٦٩) وأخرجه البخارى في الأدب (٨٠) وفي الأحكام (٢٢) وفي المغازي (٦٠) ، وأخرجه أبو داود في الأشربة (٧ ، ٥) . والترمذى في الأشربة (١ ، ٢) . والنسائي في الأشربة (٨ ، ٤٠ ، ٤٩) . وابن ماجه في الأشربة (٩ ، ١٣ ، ١٤) . والدارمي في الأشربة (٨) . والإمام مالك في الضحايا (٨) . والإمام أحمد في (١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٠) وفي (٢ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ١٨٥) وفي (٣ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ٢٣٧) وفي (٤ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤١٧) وفي (٥ : ٣٥٦) وفي (٦ : ٣١٤ ، ٣٣٣) .

أما ضياع الشخصية وفناء الشباب وهلاك الصحة والانغماس في تيار الرذيلة فشيء لا ينكره عاقل ، ولا يحتاج إلى نص .

وأما الناحية المالية فحدث عنها ولا حرج ، فكم من البيوت خربت ، وكم من الأموال بددت على الموائد الخضراء والحمراء في الليل والنهار .

وأما الخطر الديني ، وما أدراك ما هو ، فهما يصدان عن ذكر الله الذي يجلي القلوب ويزكيها ، ويظهر النفوس ويهديها ، وهما يمنعان عن الصلاة التي هي عماد الدين ، إذ السكران لا عقل له ولا قلب ، فكيف يهتدى إلى الخير وإلى الصلاة ولاعب الميسر يجلس الساعة والساعات بل يواصل ليله بنهاره لا يدري ما حوله ، ولا يشعر بنفسه ، قد نسي بيته وأهله وولده ، وإنه ليقضى الوقت بين الأوراق والنار تشتعل في بيته فلا يغيث أهله مع الناس ، فكيف يفكر في الصلاة؟ على أنه إذا صلى، صلى بلا روح ، وبلا قلب ، فهل أنتم يا من اتصفتم بوصف الايمان وتحليتكم به منتهون ؟

بعد هذا البيان اللاذع والقول الفاضح ، وهذا أمر بالانتهاء جاء على أسلوب بليغ جداً ، يدركه من يقف على أسرار بلاغة القرآن . وكيف لا يكون هذا شأن الخمر والميسر وقد نقر الله منهما ، وأكد تحريمها بوجوه من التأكيد أهمها :

- سماهما رجسا من عمل الشيطان ، بل قصرهما على الرجس لا يتعدياته إلى غيره .
- وقرنهما بالأنصاب والأزلام ، وأنت تعرف أنهما من أعمال الشرك وخرافات الوثنية . (مدمن الخمر كعابد الوثن) .

- وعلق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة على اجتنابهما .

- وجعلهما مثار العداوة والبغضاء ومبعث الشقاق والشحناء .

- وهما يصدان عن ذكر الله والله يقول : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾^(١) .

وكان ختام الآية بقوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ على ما فيه من البلاغة والبيان ، أتم صارف

للمسلمين عنهما وصاد ؟

وأطيعوا الله تعالى فيما أمركم به ، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم ، واحذروا عاقبة المخالفة وما تجر من الخيبة والندامة ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾^(٢) .

فإن توليتم بعد هذا فلا تلومن إلا أنفسكم ، واعلموا أننا على رسولنا البلاغ فقط وعلينا الحساب والجزاء ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾^(٣) .

ومن مات قبل التحريم فلا شيء عليه ، إذ هناك قانون عام وهو : ليس على الذين آمنوا وعملوا

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد . (٢) الآية ٦٣ من سورة النور . (٣) الآية ١٩ من سورة الانفطار .

الصالحات كالذين ماتوا قبل تحريم الخمر وغيره ، ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا ما اتقوا الله وعملوا الصالحات الباقيات التي شرعت في حياتهم ، كالصلاة والصيام وغيرهما ثم اتقوا ما حرم عليهم وآمنوا بما نزل فيه وفي غيره ، ثم استمروا على التقوى والإحسان وعمل الصالحات ، والله يحب المحسنين المتقين أعمالهم المخلصين فيها .

التداوى بالخمر : قال النبي ﷺ : (إنه ليس بدواء ولكنه داء ، وما جعل الله شفاء أمتي فيما حرم عليها)^(١) .

وقول النبي ﷺ إنه داء أكده رأى الطب ، إذ أن الخمر تولد أمراضا كثيرة يموت بها في كل عام عدد لا يحصى من الناس ، وفكرة التداوى بالخمر حيلة شيطانية حتى تتمكن من النفس وتصبح عادة يصعب انتزاعها .

وحكم شارب الخمر : أربعون جلدة ، وقيل ثمانون ، فقد روى أن النبي ﷺ جلد أربعين وفعل أبو بكر مثله ، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر .
ومثل الخمر كل مادة يحصل منها ضرر مالى أو جسمانى أو خطر اجتماعى أو خطر دينى كالخشيش والأفيون أو أى مادة أخرى فهي محرمة حرمة الخمر .

الصيد فى الإحرام وجزاؤه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُغْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ ءَأَيْدِيكُمْ وَرِمَا حُكْمٍ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعَلِّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة (١٥) . والدارمى بمعناه فى الأشربة (٦) . ومسلم فى الأشربة (١٢) . وأبو داود فى الطب (١١) .
والترمذى فى الطب (٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى الحدود (٢ ، ٤ ، ٥) . ومسلم فى الحدود (٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨) . وأبو داود فى الحدود (٣٥ ، ٣٦) . وابن ماجه فى الحدود (١٦) . والدارمى فى الحدود (٩) . والإمام أحمد فى (١ : ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥) وفى (٣ : ٦٧ ، ١١٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٧) .

المفردات ﴿ ليلونكم ﴾ : ليعاملنكم معاملة من يختبركم . ﴿ تناله أيديكم ﴾ : يكون في تناول اليد . ﴿ حرم ﴾ : محرمون بحج أو عمرة أو في مكان الحرم . ﴿ عدل ﴾ : مساو له . وبال أمره : عاقبة أمره الثقيلة . ﴿ للسيارة ﴾ : جمع سيار وهو المسافر .

أحل الله لنا أكل الطيبات من الرزق واستثنى الخمر وما شاكلها ، وهنا أضاف لها الصيد في الإحرام وبين جزاءه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله وبرسوله ﴿ ليلونكم الله ﴾ ليعاملنكم معاملة من يختبركم ﴿ بشيء من الصيد ﴾ أى بعض منه وهو صيد البر لا صيد البحر ، اختبركم بإرساله بحيث يسهل تناول بعضه بالأيدى ، وبعضه بالرماح ، وكيف لا يكون هذا اختباراً وابتلاء والمصيد طعامه لذيذ ، واصطياده حبيب إلى النفس ، خصوصاً في الأسفار ، فإذا أضيف إلى ذلك كثرته وعدم تأييه كان هذا اختباراً ، وأى اختبار ، يفعل الله هذا ليعلم علم ظهور وانكشاف من يخافه بالغيب ومن يخافه أمام الناس فقط ، كالمناقضين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم والله عالم بكل شيء ، ولكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم بالامثال .

فمن اعتدى منكم بعد ذلك البيان البين فله عذاب شديد في الدنيا والآخرة مؤلم غاية الألم .

يا أيها الذين اتصفتُم بالإيمان ، وصدقتم بالرسول ، وآمنتم بالقرآن : لا تقتلوا صيد البر ، وهذا النهى هو الابتلاء المذكور في الآية السابقة : لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، أو في مكان الحرم ، وإن لم تحرموا ، وذلك إجلالاً للحج وشعائره ، واحتراماً للمكان وهيبه له ، وهو مباءة للناس والطير وأمن لهم ، وهذا في الحرم المكي ، أما الحرم المدني فلا يجوز فيه الاصطياد لأحد ، ولا قطع الشجر كحرم مكة ، فإن فعل هذا أحد أثم ولا جزاء عليه عند مالك والشافعي ، ورد عن رسول الله في الصحيح : (اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإنى أحرم المدينة مثل ما حرم به مكة ، لا يختلئ خلالها — الخلى النبات الرقيق مادام رطباً ويختلئ يقطع ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها)^(١)

ومن قتله منكم عامداً قاصداً له فعليه جزاء من الأنعام مماثل له في هيئته وصورته إن وجد المثل وإلا فقيمته ، وقيل يقوم من أول الأمر واعلم أن ما يجزى عن الصيد شيئان دواب وطير فيجزي ما كان من الدواب بنظرة في الخلق والصورة ففي النعامة بدنة وحمار الوحش بقرة وفي الطيبي شاة ألخ .

(١) أخرجه البخارى في الجهاد (٧١ ، ٧٤) وفي المدينة (١) . وفي البيوع (٥٣) . وفي الأنبياء (١٠) . وفي المغازى (٢٧) . وفي الأطعمة (٣٥) . وفي الدعوات (٣٥) . وفي الاعتصام (٦) . وأخرجه مسلم في الحج (٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨) . وأخرجه أبو داود في المناسك (٦٦) . والترمذى في المناسك (٦٧) . والنسائي في الحج (١١٠) ، (١١١) ، (١٢٠) . وابن ماجه في المناسك (١٠٤) . والإمام مالك في المدينة (١٠) . . والإمام أحمد في (١ : ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٥) . وفي (٣ : ٢٣ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٩٣) . وفي (٤ : ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ١٤١) .

وقد ورد عن جابر عن النبي ﷺ قال : « في الضبع إذا أصابه المحرم كبش وفي الظبي شاة وفي الأرنب عناق »^(١) والعناق الأنتى من المعز لم تبلغ سنة .

واعلم أن الآية الكريمة : أفادت أن القتل العمد فيه الجزاء والسنة النبوية أفادت أن الخطأ كذلك وعن سعيد بن جبير : لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً بظاهر الآية والله أعلم بكتابه .

والصيد الذي نهت عنه الآية كل حيوان وحشى يؤكل لحمه ، فلا شئ في قتل الحمار الأهلى مثلا ، ولا مالا يؤكل لحمه من السباع والحشرات والفواسق كالحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وألحق مالك بالكلب الذئب والأسد والتمر . « ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » من أهل المعرفة والعدل من المؤمنين ، وإنما احتجنا للتحكيم لأن المماثلة بين النعم والصيد مما تحفى على كثير ، خصوصاً في هذه الأيام وقد توالدت أشكال وأصناف من الحيوان والطيور ، ومالا مثل له يحكم فيه بالقيمة . « يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » واصلا إليها يذبح عندها ويفرق على مساكين الحرم .

نعم عليه جزاء مماثل لما قتل أو كفارة هي أن يقوم الصيد الذى أصابه فينظر كم ثمنه من الطعام ، فيطعم لكل مسكين مداً أو يصوم مكان كل مد يوماً وعند أى حنيفة يقوم الصيد أولاً وجد له مثل أولاً ، والآية لا تمنع هذا روى ابن جرير عن ابن عباس قال : إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد فعليه من الجزاء فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

أوجبتنا هذا ليدوق عاقبة أمره ، وسوء فعله ، حيث هتك حرمة الإحرام ، عفا الله عما سلف قبل نزول الآية .

ومن عاد بعد هذا ، فينتقم الله منه ، أشد الانتقام في الآخرة ، والله عزير الانتقام ، لا يغلبه عاص أو مذنب .

أيها المسلمون : أحل لكم صيد البحر سواء كان حياً أو ميتاً قذفه البحر أو طفا على وجهه أو انخسر عنه الماء فهو الحل ميتته الظهور ماؤه أحله الله متاعاً لكم وللسيارة المسافرين ، فمن كان مقيماً فليأكل من صيده الظاهر الطازج ، ومن كان مسافراً فعنده السمك المحفوظ ، وحرم عليكم صيد البر من الوحش والطيور ما دتم حراماً ، أى فلا مانع من أكل ما صاده غيركم أو صدتموه في غير الإحرام عن النبي ﷺ قال : (صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه أو يصد لكم واتقوا الله الذى إليه تحشرون) .

(١) أخرجه الدرهمى فى المناسك (٩٠) . والإمام مالك فى الحج (٢٣٠) . وابن ماجه فى المناسك (٩٠) .

البيت الحرام والشهر الحرام ومكانتهما

* جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالنَّقْلَيْنِ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

المفردات ﴿ جعل ﴾ : يصح أن تفسر بالجعل التكويني الخلقى ، أو التشريعي .
﴿ الكعبة ﴾ : البيت المربع . وقيل المرتفع ، وقد غلب اسمها على البيت المقدس الذى بناه إبراهيم وإسماعيل بمكة عليهما السلام . **﴿ قياماً للناس ﴾** : ما به يقوم أمرهم ، ويصلح شأنهم ، (الشهر الحرام والهدى والقلائد) تقدم تفسير ذلك أول السورة .

قال الرازى : الله تعالى حرم فى الآية المتقدمة الاصطياد على المحرمين ، فكان الطير والوحش آمناً على نفسه وولده ، وفى هذه الآية أفاد أن الحرم سبب لأمن الناس وهدايتهم وسبب لحصول الخيرات والسعادة فى الدنيا والآخرة .

جعل الله الكعبة البيت قياماً للناس الذين يسكنونها ، حيث يجلب إليهم الخيرات ورزقهم من الثمرات ، ويجعل قلوب الناس تهوى إليهم ، وتعطف عليهم ، وبذلك يكون أمرهم ويصلح شأنهم ، وهكذا من حج إليها واعتمر يجدون فيها الخير والسعادة والراحة والطمأنينة كل ذلك إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾^(١) الآية . وجعلها الله قياماً للناس فى أمر دينهم ، المهذب لأخلاقهم ، المزكى لأنفسهم ، أليست مكان الحج ؟ الذى هو ركن من أركان الدين ، فيه يعقد المؤتمر العام للمسلمين الذى يهرعون إليه من كل فج عميق ، كبارهم وزعمائهم وأغنيائهم ، يتباحثون ويقفون على أمور دينهم ، وتنبعث القوة فى نفوسهم ، ويتجدد الإسلام فى أعماقهم ، وتتأكد الرابطة بينهم ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾^(٢) . وجعل الله الشهر الحرام قياماً للناس لذلك ، فهو مثابة للناس وأمن فى الجاهالية والإسلام ، فيه يأمنون على أنفسهم وتجارتهم وأموالهم ، فيه يلقي السلاح ، وتهبأ النفوس ، وتسكن الفتن ، وتخمد نار الحرب المستعرة . أليست معنى فى أنه قيام للناس ﴿ أو لم يروا أن جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾^(٣) .

وكان الهدى والقلائد قياماً للناس ، فمن بذلها قومت له دينه ، وكفرت عنه ذنبه ، وطهرت له نفسه ، وزكت ماله ، وجعلته آمناً على نفسه ، وهى عند من يأخذها قوام حياته .

كل ذلك لتعلموا أن هذه الأمور لحكم الله يعلمها ، ولا يمكن أن تصدر إلا من عالم بما فى السماوات والأرض ، وأنه بكل شىء عليم ، والناظر إلى الحج يجده دعامة من أقوى الدعائم للإسلام ،

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم . (٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات . (٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .

يعرفه الغريبيون ويعرفون أثره في نفوس المسلمين ، وما يحصل بسببه من تقويه أو اصر الصلوات وإذكاء روح الدين بين المؤمنون .

ترغيب وترهيب

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَى إِلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾

المفردات ﴿ الخبيث والطيب ﴾ : الحلال والحرام . ﴿ الألباب ﴾ : العقول .

الله سبحانه عليم بكل شيء ، وعلیم بما في السموات وما في الأرض ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحمن الرحيم ، ومقتضى هذا كله أنه لم يخلقنا عبثاً ، ولم يتركنا هملاً ، بل لا بد من جزاء العاصي ، وإثابة المطيع واعلموا أن الله شديد العقاب ، وسريع الحساب ، وقوى العذاب لمن عصى وطغى ، وتجبر وبغى ، وهو رءوف بالعباد غفور للسيئات رحيم بمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ، وأما من نشأ طائعاً ولم تدنس نفسه بسوء أبداً فهنيئاً له الرضوان ، ثم هنيئاً .

وإذا كان الأمر كذلك فاعلموا أنه ما على الرسول إلا البلاغ ، وعلى الله وحده الحساب ، وإليه المرجع والمآب ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، وهو الذى يعلم السر وأخفى ، والغيب والشهادة ، فاتقوا الله واحذروا حسابه ، قل لهم يا أيها الرسول لا يستوى الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، وهل يستوى الجيد والردىء ، وكيف يستويان : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (١) .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٢) .

قل لهم لا يستوى الخبيث والطيب أبداً ولو أعجبك كثرة الخبيث من العصاة والكفار ، وقلة الطيب من المسلمين والأبرار ، فاتقوا الله يا أولى الألباب ، وتذكروا فإنما يتذكر أولو العقول الصحيحة الذين يحكمون أحكاماً سليمة موفقة ، تفرق بين النافع حقيقة وإن يشابه تعب ومشقة وبين الضار المهلك وإن زين له الدنيا وازخرفت .

السؤال الضار

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

(٢) الآية ٢١ من سورة الحائية .

(١) الآية ٢٨ من سورة ص .

الْقُرَّاءَ أَنْ تُبَدِّلَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

روى مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ قال : لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله هذه الآية ﴾ (١) :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ من أمور الدين ودقائقه التي تركت رحمة بكم وإشفاقاً عليكم . وقيل المعنى : لا تكثرُوا من السؤال عما لا يعينكم من أحوال الناس وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ (٢) .

وليس المراد النهى عن السؤال مطلقاً في أمور الدين ، لابل قد أقر الشرع سؤالهم عن توضيح أحكام العدة والخمر وغيرهما ، فلا حرج في مثل هذا ، وإنما الحرج في التشدد في العمل وكثرة التكليف ، لأن هذا قد يؤدي للإهمال وقد يؤدي إلى الخروج من الدين كما حصل في الأمم السابقة . وقد سأل سائل منهم النبي ﷺ عن أبيه من هو وهل الحج واجب في كل سنة أم لا وغير ذلك ، من الأسئلة المخرجة التي فيها العنت والمشقة على الناس ، والله أعلم بخلقه وقدرته . وإن يسألوا عن غير هذه المسائل الشائكة مما تمس الحاجة إليه من تحريم أو تحليل أو حكم جديد يجابوا إلى طلبهم فإنه خير ، وقد أباح الله هذا النوع من السؤال فالنهي إذن في شيء لم يكن لهم حاجة إلى السؤال فيه ، وكان الإجابة عنه مشقة وزيادة كلفة وقيل لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ﴿ إن تبدلكم تسؤم ﴾ وعلى هذا خرج حديث ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها) .

قد سأل مثلهم قوم قبلكم فلما أجيبوا وفرضت عليهم كفروا بها وقالوا ليست من عند الله ، وما قوم صالح . وأصحاب المائة منكم ببعيد .

فاعتبروا يا أولى الأبصار ولا تشددوا فيشدد الله عليكم فإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين فسددوا وقاربوا .

نوع من ضلال الجاهلية

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُجَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

(١) أخرجه البخارى في الأعتصام (٢) . ومسلم في الحج (٤١٢) . والنسائي في المناسك (١) وابن ماجه في المقدمة (١) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٨) .

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

الْكَذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَوْ لَوْ كَان ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

المفردات ﴿ بحيرة ﴾ : هي الناقة يحرون أذنبا أى يشقونها شقاً واسعا إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى ، وكان يمنح درها للطواغيت فلا يحملها أحد . (السائبة) . الناقة التي تسيب لآهنتهم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ، ولا يأخذ لبنها إلا ضيف . ﴿ الوصيلة ﴾ : الشاة أو الناقة التي تصل أحاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً كان لآهنتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أحاها فلم يذبحوا الذكر لآهنتهم ، وقيل في تفسيرها غير ذلك . ﴿ الحام ﴾ : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

أيها المسلمون ما جعل الله في الدين الإسلامى من بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حامياً ، أى ما شرع ذلك ولا أمر به ، فما كان يفعله الجاهليون فهو رد عليهم غير مقبول منهم . ولكن الذين كفروا إذ يفعلون ما يفعلون إنما يفترون على الله الكذب حيث قالوا أمرنا الله بهذا : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .. إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرون ﴾ (١) .

وإذا قيل لهم تعالوا أيها الضالون إلى نور القرآن ، وإلى هدى الرسول ، وحكموا عقولكم ، وانزعوا عنها غطاء التعامى عن آيات الله ، قالوا غروراً وجهلاً وسفهاً وحمقاً : ﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فآباؤنا مصدر التشريع الصحيح ، ايتعونهم ويتركون الدين الصحيح والتشريع القويم ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً أبداً ولا يهتدون إلى خير أصلاً ، ولا غرابة فهم الذين عاشوا فى العداوة والبغضاء والحروب والغارات وشرب الخمر ووأد البنات وعمل الفحش والمنكرات . وهل كانت هناك جاهلية جهلاء وضلالة عمياء أسوأ من هذا .

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا ءَاهْتَدَيْتُمْ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بعد ما سبق من توجيهات تتعلق بالأحكام الشرعية وتنفى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغير ذلك ، نعى القرآن الكريم عليهم ما كانوا عليه من تقليد الآباء ، وأن

ذلك كان معولا من معاول الهدم ، إذ أن المسؤولية في الإسلام فردية ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾^(١) فما بالناس إذا كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟ إن الخطب عندئذ فادح والهول جسم .

بعد ذلك يأتي الخطاب من صاحب العظمة والكبرياء إلى الجماعة المؤمنة التي عرفت بإيمانها واستجابتها لأوامر الله ورسوله . جاء الخطاب مرشدا وموجها لأمر جد خطير تنبئ عليه قوة الأمة وتأثيرها في عالم البشر ، إنه الأمر بالتزام شئون أنفسها ، وذلك بالإعداد والتكوين والاتحاد والألفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا ما استمسكت الجماعة المؤمنة بأحكام ربها ونفذت أوامره وطبقت شرائعها ، فإن أي قوة على وجه الأرض مهما كان ضلالها ، لا يمكن أن تضير هذه الجماعة التي أصبحت كالبنيان المرصوص والتي أصبحت سماتها كما صورها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾^(٢) .

ومن الخطأ الشائع أن يقال إن الإنسان متى لزم شأن نفسه أصبح خاليا من مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك فهم سقيم برئت منه ساحة الآية الكريمة . فخيرني بربك كيف يكون للمجتمع كيان إذا لزم كل إنسان نفسه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر ، إنه مجتمع الرذائل والخور ، إنها السلبية القاتلة والآية تدعو إلى قوة المجتمع الإسلامي : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ هكذا بصيغة الجمع ولو كانت كما يدعون ويزعمون لجاء الخطاب بصيغة الأفراد : ﴿ يا أيها المؤمن عليك نفسك ﴾ ما من مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا كان العز رائده والنصر حليفه وألبسه الله لباس العز والشرف . وما من مجتمع لا يؤمر فيه بمعروف ، ولا ينهى فيه عن منكر إلا كان الذل رائده ، والفشل حليفه ، وأذاق الله أهله الخوف والجوع بما كانوا يصنعون : الدين النصيحة ، والناس بخير ماتناصحوها ، وها نحن أولاء نسوق من الأحاديث ما يجعل المعنى جليا جلاء يزيل كل لبس وينفي كل غموض :

قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به .

قال الإمام أحمد : حدثنا قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرعون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه)^(٣) .

وروى الإمام أبو عيسى الترمذي قال : حدثنا أبو أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت :

(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(١) الآية ٣٨ من سورة المدثر .

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم (١٧) . والترمذي في الفتن (٨) وفي تفسير سورة ٥ (١٧) . وأخرجه ابن ماجه في الفتن (٢٠) . والإمام أحمد في (١ ، ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩) وفي (٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦) وفي (٦ : ٣٣٣) .

له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال آية آية قلت : قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً . سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم) قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ، قال : (بل أجر خمسين منكم)^(١) .

وقال عبد الرزاق : أبناً معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ولكن قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل ﴾ قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر : فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ الآية ، قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجيء تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزل ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، ما ذكر من الساعة ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانها ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء والبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية . رواه ابن جرير .

وليعلم المسلمون أن الله تبارك وتعالى لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . فكن يا أخى كما قال لقمان لابنه : (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تنبيه للغافلين الذين شغلتهم الدنيا عليهم أن يعلموا أنه لا بد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . فالיום عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول لعمر بن مهاجر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر فانك ستموت .

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٧) . والترمذى في تفسير سورة ٥ (١٨) وابن ماجه في الفتن (٢١) .

(٢) الآية ١٧ من سورة لقمان .

نعم هذا نموذج رفيع من النماذج التي تخرجت في مدرسة الإسلام فمن خاف سلم ، ومن ذاق عرف ، ومن حُرْم انحرَف .

غدا توفي النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

أحكام تتعلق بالوصية عند الموت

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الرَّصِيَّةِ أَثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ ﴿١٥٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يُقِيمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَّيْنَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَفُوا إِنْ تَرَدَّا يَمْنًا بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٨﴾

المفردات ﴿ شهادة ﴾ : هي قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصير أو بصيرة . ﴿ ضربتم في الأرض ﴾ : سافرت ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه . ﴿ تحسبونهما ﴾ : تمسكونهما . ﴿ إن آرَبْتُمْ ﴾ : شككتم في صدقهما فيما يقران به . ﴿ عَثَرَ ﴾ : اطلع وأعثر عليه : أعلمه به . ﴿ الأوليان ﴾ : تنبئة أولى وهو الأحق بالشيء . ﴿ أدنى ﴾ : أقرب .

عندما نذكر سبب نزول هذه الآيات يتضح لنا معناها ، كما يتجلى لنا مدى حرص الإسلام على أداء الأمانات كاملة غير منقوصة ، ومدى حرصه على الصدق دونما نظر إلى العواقب ، فالصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفكك . وقد مدح الله تعالى الصادقين عندما خرطهم في سلك المسلمين والمؤمنين ، فقال : ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ (١) وحكم للمتصفين بتلك الفضائل بقوله : (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) . وهل يستطيع إنسان أن يكتف الله شيئا .

الله يدرى كل ما تضمــــر
يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع
خداع من يطوى ومن ينشر

الله تعالى عليم بذات الصدور ، يعلم خائنة الأعين ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى .
 جاء في سبب نزول هذه الآيات : كان تميم الدّارى ، وعدى بن بداء رجلين نصرانيين يتّجران إلى مكة في الجاهلية ، ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حولاً متجرهما إلى المدينة ، فخرج بديل مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة فخرجوا جميعاً تاجراً إلى الشام . حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصية بيده ثم دسها في متاعه ، وأوصى إليهما أن يوصلا متاعه إلى أهله . فلما مات فتحا متاعه ، فأخذوا منه شيئاً ثم حجراه كما كان وقدما المدينة على أهله ، فدفعوا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه فقالوا : هذا الذى قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : ما كتمنا له شيئاً ، فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ، فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذى لا إله إلا هو . ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش موه بالذهب فقال أهله : هذا من متاعه ، قالوا : نعم ولكننا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت الآية ﴿ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ فأمر النبي ﷺ رجلين من أهل بيت الميت أن يحلفا على ما كتبا وغيبا ويستحلفانه .. ثم إن تميماً أسلم وبايع النبي ﷺ وقال : صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء مع صاحبي^(١) .

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدٌ كَمِ الْمَوْتِ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ ، هذا بيان حكم من أحكام الله تعالى يتعلق بالوصية عند الموت في السفر بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ فالمقصود بالضرب في الأرض هو السفر للتجارة أو غيرها ، قال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾^(٢) فإذا شعر المسافر بدنو أجله ، وأراد أن يكتب وصيته لأهله يخبرهم فيها بما يريد كإثبات ما معه من مال ومتاع ستركه بعد موته ، فعليه أن يشهد على تلك الوصية اثنين ذوى عدل . قوله تعالى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أى من المسلمين إن وُجدا ، ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أى من غير المسلمين إن لم يوجد سوى ذلك . وهذه مسألة خاصة وحكم خاص بالسفر .

كيف يشهدان

قال تعالى ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنًا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين ﴾ . معنى تحبسونهما أى تمسكونهما (من بعد الصلاة) : أى صلاة العصر كما فعل رسول الله ﷺ أو أى صلاة أخرى ، فيحلفان بالله قائلين : ﴿ لا نشتري به ثمنًا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله ﴾ بمعنى أننا لا نشتري باليمين أى متاع من متاع الدنيا ، ولا نحيف

(١) أخرجه البخارى في الوصايا (٣٥) . وأبو داود في الأفضية (١٩) . والترمذى في تفسير سورة هـ (٢٠) .

(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

في الشهادة طمعا في عرض فان ولو كان الموصى من ذوى قربانا ، فإننا لانطمع فيما ترك . وإنما تكون هذه الشهادة وذلك القسم عندما يقع الشك والريبة في قلوب الورثة ، وقد جاء ذلك صريحا في قوله جل شأنه ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ أى شككتم ووقع في نفوسكم أن الشاهدين قد خانا وكتما شيئا من متاع الميت بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ عَثْرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أى ظهر واتضح أن الشاهدين قد وقع منهما ما يدل على الخيانة في الأمانة فالحكم كما قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ أى فشاهدان آخران يقومان مقام الشاهدين اللذين عثر على أنهما خانا ، وليكن هذان الشاهدان الآخران من الذين استحقا الأوليان عليه ، والمقصود بالأوليين : الوارثان من أقارب الميت .

كيف يشهد الأوليان

قال تعالى : ﴿ فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدِينَا إِنَّا إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴾ وبهذه الشهادة يرد إلى الورثة ما كتبه الشاهدان الأولان أو خاناه . وقول الأوليين : ﴿ وما اعتدينا ﴾ أى ما حدث منا تجاوز للحق عندما شهدنا بعد شهادتهما إننا إن فعلنا ذلك فإننا من الظالمين ، ولكننا شهدنا عندما عثر على أنهما استحقا إثما .

أدنى السبل إلى إظهار الحق

قال تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أى ذلك الذى ذكرناه أقرب السبل لإتيان الشهود بالشهادة على وجهها الصحيح إذ أنه يدعو إلى خوف الشهود أن ترد أيمان بعد أيمانهم فيكون ذلك من الفضائح ما فيه ومن الخزي والتشهير ما يندى له جبين الحياء خجلا .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ : ما أعظم أن يأتي الأمر بالتقوى بعد بيان الأحكام إذ التقوى هى صمام الأمن فى تنفيذ أوامر الله ، أليست التقوى هى السلاح الأقوى ، بل لأنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، وما أجمل أن يأتي الأمر بالسمع بعد الأمر بالتقوى . قال تعالى فى حق المؤمنين ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن طاعته وقد يكون ذلك بمخالفة أمره والبعد عن طاعته . وخيانة الأمانة وكتمان الشهادة واستحقاق الإثم والكذب فى أداء اليمين من هذا القبيل .

من مشاهد القيامة

*يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَعَلِمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿١٠١﴾

اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل وهو يوم القيامة : فياله من يوم ما أطوله وياله من خطب ما أهوله ! وياله من جبار ما أعدله ! إنه يوم سيجمع الله فيه المرسلين فيسألهم : ﴿ ماذا أجبتكم ﴾ قال

تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾^(١)

وقد بين الله تعالى أنه سيسأل الذين أرسل إليهم فقال : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾^(٢) وقال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾^(٤) . وبين أنه سيسأل الرسل فيقول : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ فيجيب الرسل قائلين : ﴿ لا علم لنا ﴾ ، والدافع لتلك الإجابة إما أن يكون لما أصابهم من ذهول من أهوال هذا اليوم العصيب . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾^(٥) . وإما أن يكون المقصود بإجابتهم أن لا علم لنا بجانب علمك فأنت الذي أحطت بكل شيء علماً ، وأحصيت كل شيء عدداً ، وأنت علام الغيوب علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

وهكذا سأل الله الرسل ، وبهذا أجابوا : وهكذا سأل الذين أرسل إليهم وهكذا تبينت الحقائق : قال تعالى : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين * والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾^(٦) .

حديث عن المسيح بن مريم

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ مِيقِينَ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ إِسْنًا أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

المفردات ﴿ روح القدس ﴾ : جبريل عليه السلام الذي يؤيد به الله رسله بالتعليم والتثبيت .
﴿ في المهدي وكهلاً ﴾ : في حالتي الصغر والكبر . ﴿ الكتاب ﴾ : المراد كل ما يكتب .
﴿ والحكمة ﴾ : العلم النافع . ﴿ الأكمه ﴾ : من ولد أعمى . ﴿ سحر ﴾ : السحر هو التمويه والتخيل

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٩٢ من سورة الحجر . (٣) الآية ١ من سورة الحج .
(٤) الآية ٢٤ من سورة الصافات . (٥) الآية ٧ - ٩ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .

بالباطل حتى يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته . ﴿ الحواريون ﴾ الأصحاب الخالص للمسيح .
 واذكر يا محمد ﴿ إذ قال الله يعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ﴾ ، فقد أنعمت
 عليك بالنبوة ، وجعلتك آية للناس ورحمة منّا ، وجعلت خلقك معجزة ، إذ خلقتك من غير أب ،
 وأنعمت على والدتك بالاصطفاء والطهر ، ﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك
 واصطفاك على نساء العالمين ﴾ (١) .. ومن نعمي عليك أنني أيدتك بالروح القدس أى الروح الطاهر وهو
 جبريل الأمين . وقد كنت من الذين تكلموا في المهد حيث قلت لأمك : ﴿ لا تخزنى قد جعل ربك تحتك
 سرياً ﴾ (٢) وقلت لقومك : ﴿ إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ (٣) فكان كلامك هذا بمثابة دعوة
 إلى الله وتبرئة لساحة أمك البتول الطاهرة الناسكة . وكما دعوتهم في مهدك دعوتهم في كهولتك .. ومن
 نعمي عليك أنني علمتك الكتابة وأنعمت عليك بالحكمة . والحكمة علم غزير وعمل موفق وحكم
 صواب . قال تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (٤) . كذلك
 علمتك التوراة والإنجيل ، فعرفت ما في التوراة من أحكام ، وما في الإنجيل من وصايا . وأظهرت على
 يديك المعجزات وخوارق العادات فتأتى من الطين كصورة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء
 الأكمه الذى ولد أعمى فترد عليه بصره ، والأبرص المصاب بهذا الداء الجلدى الخطير فتشفيه من
 مرضه ، وكل ذلك بإذنى ومن المعجزات التى أجريتها على يديك أنك تخرج الموتى من قبورهم بإذنى .
 ومن نعمي عليك أنني كففت أذى بنى إسرائيل عنك ومنعتك منهم بعنايتى ورعايتى وحفظى لك
 وصيانتى ، إذ جنتهم بالبينات الواضحات ، وخوارق العادات ، فقال الكافرون منهم كما قالوا للأنبياء من
 قبلك : إن هذا إلا سحر مبين : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (٥) . كذلك ما أتى
 الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ (٦) .

وهل هناك وجه شبه بين السحر والمعجزة : إن المعجزة حقيقة واقعة لامراء فيها ، أما السحر فإنه
 تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل لا يستند إلى أرض من الواقع ، فهل إبراء الأكمه وشفاء الأبرص
 تخيلات وأوهام ؟ وهل إخراج الموتى من القبور أحياء تخيلات وأوهام ، كلا . بل إنها معجزات
 وحقائق . وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ﴿ ويل لكل أفكأثمم ﴾ . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم
 يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشرة بعذاب أليم ﴿ (٧) .

ومن نعمي عليك أنني أوحيت إلى الحواريين وهم أصحابك الخالص وحي إلهام كالوحي إلى أم
 موسى ﴿ أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ فى الآية دليل على أن دين الأنبياء

(١) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٤ من سورة مريم .

(٣) الآية ٣٠ من سورة مريم .

(٤) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٦) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الذاريات .

(٧) الآيات ٧ ، ٨ من سور الجاثية .

جميعا هو الإسلام : قال نوح ﴿ (وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾^(١) ، وقال إبراهيم ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾^(٢) وقال يوسف ﴿ توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾^(٣) وقال يعقوب ﴿ لبيته ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾^(٤) وقال الله تعالى في حق الأنبياء : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾^(٥) وقال في حق خاتمهم : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾^(٦) .

قصة المائدة

إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

المفردات ﴿ الخواريون ﴾ : الأصحاب الخالص للمسيح . ﴿ مائدة ﴾ : هي الخوان الذي عليه الطعام أو الطعام نفسه . ﴿ اللهم ﴾ : يا الله . ﴿ عيدا ﴾ : فرحا وسرورا أو يوما يجتمع الناس فيه للعبادة كعيد الفطر مثلا يعود كل سنة .

وقصة المائدة عبرة وعظة لمن يطلب من الله آيات غير التي أنزلت ، وعاقبة ذلك ، وهي في الجملة تسلية للنبي ﷺ وتبين له طبائع الناس وسيرتهم مع أنبيائهم .

هذه قصة المائدة التي سميت هذه السورة الكريمة باسمها ، وقد تسمى السورة في القرآن الكريم بأعجب ما فيها ، كسورة البقرة إذ لها شأن عجيب ، وهذه السورة سميت بالمائدة أيضا لأن المائدة آية من آيات الله تعالى ، وقد يراد بالمائدة الخوان الذي عليه الطعام ، وقد تطلق أيضا على الطعام نفسه ، لكن الذي يجب الوقوف عنده كثيرا كيف يقول الخواريون وهم الأصحاب الخالص لنبيهم عيسى ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ وهو سؤال خطير خاصة وأن الله قد أجرى على يدي المسيح من المعجزات ما يملأ النفس يقيناً وصدقاً وإيمانا وإذعانا لقدرة الله تعالى وعظمته فإذا كان هذا قد صدر من الخواريين ، فما بالنا بغيرهم .

(٤) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٤ ، من سورة المائدة .

(٦) الآية ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٩١ من سورة التمل .

(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

من هنا فقد أعمل العلماء عقولهم في تخرّيج هذه الآية مستظليين بظل الشرع واقفين عند حدود النص ، فقالوا في تفسير هذا المشهد ، قال العلماء : واذكر يا محمد وقت قول الحواريين لعيسى ابن مريم والمراد في مثل هذا التركيب ذكر ما حصل في الوقت لانفس الوقت . قال الحواريون وهم المؤمنون الخالص ردا على عيسى حين قال : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ ، ومع هذا قالوا : ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ .

وهذا سؤال لا يليق بهم قطعاً ولذا خرج العلماء على وجوه احسنها أن يستطيع بمعنى يطيع كاستجاب بمعنى أجاب ، أو المعنى : هل تستطيع أمر ربك ، أى سؤاله ، وقيل إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية ، أى هل ينافى الحكمة إنزال المائدة أم لا ؟ فإن ما ينافى الحكمة لا يقع قطعاً وإن كان ممكناً .

ولذا قالوا معتدلين عن إيراد السؤال بهذه الصورة نريد أن نأكل منها ، فنحن في حاجة إليها ، ونحن إذا أكلنا تطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ في أن الله تعالى أرسلك نبياً واختارنا أعوانا لك ، وقد رضى عنا بإجابته سؤالنا .

﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة ، إذ هذه كالدليل على ذلك .

قال عيسى ابن مريم يا ربنا يا مالك أمرنا ومتولى شئوننا أنزل علينا مائدة من السماء يراها هؤلاء وتكون لنا معشر المؤمنين مصدر فرح وسرور ويوم نزولها نتخذها عيداً نجتمع فيه للعبادة والشكر ويعود علينا كل عام باليمن والإقبال لأولنا وجوداً وآخرنا كذلك وتكون آية منك ودلالة وحجة ترشد القوم إلى صحة دعوتي وصدق رسالتي ، وارزقنا ما به نقيم أودنا ونغذى أجسامنا وعقولنا فأنت خير الرازقين ، ترزق من تشاء بغير حساب .

قال الله تعالى : ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ وقد نزلت ، إذ وعده الحق وقوله الصدق ، فمن يكفر بعد نزول هذه الآية المقترحة فإني أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب هذا العذاب لأحد من العالمين ، إذ اقترح آية بعد الآيات الكثيرة التي نزلت كهذه المائدة آية يشترك في إدراكها جميع الحواس ، ثم بعد هذا يكفر بها ويستهزئ ، فإنه يستحق من الله عذاباً دونه عذاب الكفار جميعاً .

وورد في قصة المائدة روايات كثيرة عن شكلها ولونها وطعامها ، والظاهر والله أعلم أنه كان لخيال الإسرائيليين فيها نصيب ، ونحن نلتزم حدود القرآن والسنة الصحيحة ، وفقنا الله إلى الصواب .

في ساحة العدل يوم القيامة

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي
وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا
اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

المفردات ﴿ ما في نفسي ﴾ : المراد تعلم سرى ولا أعلم سرى . ﴿ شهيداً ﴾ : حفيظاً بما
أمرتهم . ﴿ الرقيب ﴾ : من المراقبة وهي المراعاة والمراد الحافظ لهم والعالم بهم . ﴿ العزيز ﴾ : الذي
لا يغلبه أحد . ﴿ الحكيم ﴾ : المنزه عن العيب، الذي يضع الأمور في نصابها . ﴿ صدقهم ﴾ : الصدق
هو مطابقة الخبر للواقع والكذب هو بخلاف ذلك .

هذا مشهد من مشاهد القيامة في ساحة هي ساحة العدل الإلهية الكبرى ، وفي يوم يجمع الله فيه
الرسل ، وقد خص الله تعالى المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو يعلم أنه إمام من أمة التوحيد
وأحد الأنبياء الذين عملوا وصبروا وجاهدوا وسماهم الله أولوا العزم من الرسل ، فهو أحد خمسة قال الله
فيهم ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾^(١) وذكرهم في قوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم
ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾^(٢) وذكرهم تعالى في
قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى
أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾^(٣) الآية .

إنما خص الله تعالى المسيح بهذا السؤال : ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾
ليظهر براءته مما قاله النصراني فيه وفي أمه ، وليكون ذلك إعلاناً وبياناً لبطلان ما ادعاه هؤلاء النصراني
من افتراء وكذب وبهتان على نبي الله وأمه ، وليكون في ذلك توبيخ وتقريع وتسفيه لما اعتقدوه ، لذا جاء
الجواب من المسيح صريحاً ﴿ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ أي أن هذا دليل على
أن ما قالوه في شأنه وشأن أمه لا يمت للحق بأدنى صلة ، بل هو يجافي الحق ويناقضه ، ثم يؤكد المسيح

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف . (٢) الآية ٧ من سورة الأحزاب . (٣) الآية ١٣ من سورة الشورى .

هذا المعنى بما يفيد طهارة القلب ، وطهارة اللسان ، فيقول : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ أى أنك تعلم سرى الذى انطوت عليه نفسى ولا أعلم ما في ذاتك فأنت الذى أحطت بكل شيء علماً وأحصيت كل شيء عدداً علمت ما كان وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ وكان سؤالاً استشفه المسيح فأجاب عنه كأن سؤالاً قيل فيه فماذا قلت لهم إذا؟ فأجاب عنه ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴿ (١) ﴾ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ . أى شاهداً على أفعالهم وأقوالهم مدة وجودى فيهم : ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ المطلع على أفعالهم ، وما تخفى صدورهم وأنت الشهيد على كل شيء الحفيظ على كل فعل .

قوله تعالى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، هذا تفويض وتسليم لله تعالى بالأمر كله إن تعذبهم لما اقترفوه فإنهم عبادك وأنت السيد الأكبر والملك الأعظم الذى بيده ملكوت كل شيء وإن تغفر لهم فإنهم عبادك وأنت القائم على القائم بنفسك فالوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع إرادتك إن تعذبهم فبعزتك التى لا تقهر وإن تغفر لهم فبحكمتك التى تتزهت عن العتب فأنت الضار النافع الخافض الرافع العزيز الحكيم المحيى المميت المعز المذل القاهر القادر المقدم المؤخر الأول والآخِر الظاهر والباطن .

وهذه الآية تتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددّها .

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر قال صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقراً بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : ﴿ إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانها وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً ﴾ (٢) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه فقال : (اللهم أمتي) وبكى فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ١٤٩) .

(١) الآيات ٧٢ ، ٧٣ من سورة المائدة .

وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك^(١) .

وعن حذيفة بن اليمان قال : « غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : (إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أي رب ، هم خلقتك وعبادك . فاستشارني الثانية فقلت له كذلك فقال لي : لا أخزيك في أمتك يا محمد وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ، ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إلى فقال : ادع تجب ، وسل تعط . فقلت لرسوله : أو معطى ربي سؤلئ ؟ فقال : ما أرسلني إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطاني ربي ولا فخر ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأنا أمشي حياً صحيحاً ، وأعطاني أن لا تجوع أمتي . ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر ، وهو نهر في الجنة يسيل في حوض ، وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهراً ، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لي ولأمتي الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج) »^(٢) .

وعن ابن عباس قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : (يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا) ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ * ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »^(٣) رواه البخاري . قوله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ الإشارة هنا إلى يوم القيامة والصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك . وأول درجات الصدق صدق اليقين مع الله ، حتى فسر بعضهم الصدق هنا بالتوحيد . وهذه الآية دليل على أن سؤال الله للمسيح سيكون يوم القيامة ولا يقال لما عبر بالماضي بقوله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ ، لأن الحكمة في هذا التعبير إفادة تحقق الوقوع كما في قوله جل شأنه إخباراً عن القيامة : ﴿ أتئى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾^(٤) وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾^(٥)

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣) . والبخاري في التوحيد (٣٣) . والإمام أحمد في (١٥٩ : ٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٨ ، ٤٨) وفي تفسير سورة ٥ (١٤) وفي الرقاق (٤٥) وأخرجه مسلم في الجنة (٥٦ ، ٥٩) .

والترمذي في القيامة (٣) وفي تفسير سورة ٨ (٢) وأخرجه النسائي في الخائز (١١٨ ، ١١٩) وابن ماجه في الزهد (٣٣) .

والدارمي في الرقاق (٨٠ ، ٨٢) والإمام أحمد في (١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨) وفي (٦ : ٥٣ ،

(٩٠) . (٤) الآية ١ من سورة النحل . (٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾^(١) وكقوله جل شأنه : ﴿ لا يسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾^(٢) ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلونى سلونى أعطكم قال : فيسألونه الرضا فيقول رضى أحلكم دارى ، وأنا لكم كرامتى ، فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا قال : فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى) .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى خير إلى من الدنيا وما فيها

قوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾ ، هذه الآية فيها فضل القضاء بعد براءة المسيح عليه السلام مما قاله أهل الضلال ، أجابه الله تعالى بقوله ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ ، ثم جاءت هذه الآية تقضى بالحق ، فالذى يملك الكون كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه هو الله مالك الملك وملك الملوك لا شريك له فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فالمسيح عبد من عباده وكل الكائنات طوع إرادته .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، علا فقهر وبطن فخير وملك فقدر .

يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحده
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب له تقر وتشهد

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحجر .

(١) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .

سورة الأنعام

هذه السورة مكية سوى ست آيات منها : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، هذه الآيات نزلت بالمدينة في مرتين وباقي السورة نزلت بمكة دفعة واحدة .

عدد آياتها : مائة وخمس وستون آية عند الكوفيين ، وست عند البصريين والشاميين ، وسبع عند الحجازيين .

وعدد كلماتها : ثلاثة آلاف واثنان وخمسون كلمة ، وعدد حروفها اثنا عشر ألفاً ومائتان وأربعون .

ولهذه السورة اسمان : سورة الأنعام لما فيها من ذكر الأنعام مكرراً ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث ﴾ ومن الأنعام حمولة وفرشاً ﴿ وأنعام لا يذكر اسم الله عليها ﴾ وسورة الحجة لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة وأيضاً تكررت فيه الحجة ﴿ وتلك حجتنا آتيانها إبراهيم ﴾ ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ .

مقصود السورة على سبيل الإجمال

ما اشتمل على ذكره : من خلق السموات والأرض وتقدير النور والظلمة ، وقضاء آجال الخلق ، والرد على منكرى النبوة ، وذكر إنكار الكفار في القيامة ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وذكر تسلية الرسول ﷺ عن تكذيب المكذبين ، وإلزام الحجة على الكفار ، والنهي عن إيذاء الفقراء ، واستعجال الكفار بالعذاب ، واختصاص الحق تعالى بالعلم المغيب ، وقهره وغلبته على المخلوقات ، والنهي عن مجالسة الناقضين ومؤانستهم ، وإثبات البعث والقيامة ، وولادة الخليل عليه السلام وعرض الملكوت عليه ، واستدلاله حال خروجه من الغار ، ووقوع نظره على الكواكب والشمس والقمر ، ومناظرة قومه ، وشكاية أهل الكتاب وذكرهم حالة النزاع ، وفي القيامة وإظهار برهان التوحيد ببيان البدائع والصنائع ، والأمر بالإعراض عن المشركين ، والنهي عن سب الأصنام وعبادتها ، ومبالغة الكفار في الطغيان ، والنهي عن أكل ذبائح الكفار ، ومناظرة الكفار ومحاولتهم في القيامة ، وبيان شرع عمر بن لحي في الأنعام بالحلال والحرام ، وتفصيل محرمات الشريعة الإسلامية ، ومحكمات آيات القرآن والأوامر والنواهي من قوله تعالى ﴿ قل تعالوا ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، وظهور أمارات القيامة وعلاماتها في الزمن الأخير ، وذكر جزاء الإحسان الواحد بعشرة ، وشكر الرسول على تربيته من الشرك والمشركين ورجوعه إلى الحق في محياه ومماته وذكر خلافة الخلائق وتفاوت درجاتهم وختم السورة بذكر سرعة عقوبة الله لمستحقها ورحمته ومغفرته لمستوجبها بقوله ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

الآيات المتشابهات

في هذه السورة الكريمة آيات تشابهت مع آيات في سور أخرى ، وقد ذكرها صاحب البصائر

فقال :

قوله تعالى : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتهم أبناء ﴾ ، وفي الشعراء ﴿ فقد كذبوا فسياتيهم ﴾ لأن سورة الأنعام متقدمة فقيد التكذيب بقوله ﴿ بالحق لما جاءهم ﴾ ثم قال : ﴿ فسوف يأتهم ﴾ على التمام .

وذكر في الشعراء ﴿ فقد كذبوا ﴾ مطلقاً لأن تقييده في هذه السورة يدل عليه ثم اقتصر على السين هناك بدل ﴿ فسوف ﴾ ليتفق اللفظان فيه على الاختصار .

قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ في بعض المواضع بغير واو كما في هذه السورة وفي بعضها بالواو وفي بعضها بالفاء هذه الكلمة تأتي في القرآن على وجهين : أحدهما متصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة ، فذكره بالهمز والواو ، ليدل الهمز على الاستفهام والواو على عطف جملة على جملة قبلها ، وكذا الفاء ، ولكنها أشد اتصالاً بما قبلها ، والثاني متصل بما الاعتبار فيها بالاستدلال ، فاقصر على الهمز دون الواو والفاء ليجرى مجرى الاستئناف ، ولا ينتقض هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير ﴾ في النحل ، لاتصالها بقوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ وسبيله الاعتبار بالاستدلال فبنى عليه : ﴿ ألم يروا إلى الطير ﴾ .

قوله : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا ﴾ في هذه السورة فحسب وفي غيرها : ﴿ سيروا في الأرض فانظروا ﴾ لأن ثم للتراخي والفاء للتعقيب . وفي هذه السورة تقدم ذكر القرون في قوله : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ ثم قال : ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ . فأمرُوا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك ﴿ في ﴾ سير بعد سير وزمان بعد زمان فخصت بتم الدالة على التراخي بعد الفعلين ليعلم أن السير مأمور به على حدة ولم يتقدم في سائر السور مثلها فخصت بالفاء الدالة على التعقيب قوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ ليس بتكرار لأن الأول في حق الكفار (والثاني) في حق أهل الكتاب . قوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . وقال في يونس ﴿ فمن ﴾ بالفاء وختم الآية بقوله ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ لأن الآيات التي تقدمت في هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو .

وهو قوله : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم بهومن بلغ . وإننى بريء ﴾ ثم قال : ﴿ ومن أظلم ﴾ وختم الآية بقوله : ﴿ الظالمون ﴾ ليكون آخر الآية موافقاً للأول . وأما في سورة يونس فالآيات التي تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاء وهو قوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ ثم قال : ﴿ فمن أظلم ﴾ (بالفاء) وختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ أيضاً موافقة لما قبلها وهو قوله :

﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ فوصفهم بأنهم مجرمون : وقال بعده ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ فختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ ليعلم أن سبيل هؤلاء سبيل من تقدمهم .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ وفي يونس ﴿ يستمعون ﴾ لأن ما في هذه السورة نزل في أبي سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأمية وأبي بن خلف فلم يكثروا كثرة قوله ﴿ من ﴾ في يونس لأن المراد بهم جميع الكفار فجعل ههنا مرة على لفظ ﴿ من ﴾ فوُحِد لقلتهم ومرة على المعنى فجمع لأنهم وإن قلوا جماعة وجمع ما في يونس ليوافق اللفظ المعنى وأما قوله في يونس ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ فسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ ، ثم أعاد فقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على نار ﴾ لأنهم أنكروا النار في القيامة وأنكروا الجزاء والنكال فقال في الأولى : ﴿ إذ وقفوا على النار ﴾ ، وفي الثانية : ﴿ على نار ﴾ أى جزاء ربهم ونكاله في النار وختم بقوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ليس غيره وفي غيرها بزيادة : ﴿ نموت ونحيا ﴾ لأن ما في هذه السورة عند كثير من المفسرين متصل بقوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ولم يقولوا ذلك بخلاف ما في سائر السور ، فإنهم قالوا ذلك فحكى الله تعالى عنهم قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب وهو ﴾ قدم اللعب على اللهو في موضعين هنا وكذلك في القتال والحديد ، وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ . كلعب الصبيان ﴿ وهو ﴾ كلهو الشبان ﴿ وزينة ﴾ كزينة النسوان ﴿ وتفاجر ﴾ كتفاجر الإخوان ﴿ وتكاثر ﴾ كتكاثر السلطان . وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله : ﴿ وما بينهما لاعبين ﴾ لو أردنا أن نتخذ هوأً لاتخذنا ، من لدنا ﴾ ، وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحاليتين ، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء ﴿ وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴾ أى الحياة التي لا بداية لها ولا نهاية لها فبدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا .

قوله تعالى : ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ في هذه السورة ، وفي الأعراف : ﴿ يضرعون ﴾ بالإدغام لأن ههنا وافق ما بعده وهو قوله : ﴿ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ ومستقبل تضرعوا يتضرعون لا غير . قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ مكرر لأن التقدير : انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون عنها فلا نعرض عنهم بل نكررهما لعلهم يفقهون .

قوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ﴾ فكرر ﴿ لكم ﴾ وقال في هود : ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ فلم يكرر ﴿ لكم ﴾ لأن في هود تقدم ﴿ إني لكم نذير ﴾ وعقبه ﴿ وما نرى لكم ﴾ وبعده ﴿ أن أنصح لكم ﴾ فلما تكرر ﴿ لكم ﴾ في القصة أربع مرات اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ في هذه السورة وفي سورة يوسف : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ منوناً لأن في هذه السورة تقدم ﴿ بعد الذكرى ﴾ و ﴿ لكن ذكرى ﴾ فكان ﴿ الذكرى ﴾ أليق بها .

قوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ في هذه السورة ، وفي آل عمران : ﴿ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ ، وكذلك الروم ويونس : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ ، لأن (ما) في هذه السورة وقعت بين أسماء الفاعلين وهو فالتق الحب فالتق الإصباح وجاعل الليل سكناً واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام والتونين والجر (من وجه) وغير ذلك ويشبه الفعل من وجه فيعمل عمل الفعل ولا يثنى (ولا) يجمع إذا عمل وغير ذلك ولهذا جاز العطف عليه بالاسم نحو قوله : ﴿ الصابرين والصادقين ﴾ وجاز العطف عليه بالفعل نحو قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ ونحو قوله تعالى : ﴿ سواء عليكم أذعنتموهم أم أنتم صامتون ﴾ فلما وقع بينهما ذكر ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ بلفظ الفعل و ﴿ يخرج الميت من الحي ﴾ بلفظ الاسم عملاً بالشبهين وأخر لفظ الاسم لأن الواقع بعده اسمان والمتقدم اسم واحد بخلاف ما في آل عمران لأن ما قبله وما بعده أفعال وكذلك في يونس والروم قبله وبعده أفعال : فتأمل فيه فإنه من معجزات القرآن .

قوله تعالى : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ ثم قال : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ وقال بعدها : ﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ، لأن من أحاط علماً بما في الآية الأولى صار عالماً لأنه أشرف العلوم فحتم بقوله : ﴿ يعلمون ﴾ والآية الثانية مشتملة على ما يستدعى تأملاً وتدبراً ، والفقه علم يحصل بالتفكير والتدبر ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى ، فحتم الآية بقوله تعالى : ﴿ يفقهون ﴾ ومن أقر بما في الآية الثالثة صار مؤمناً حقاً فحتم الآية بقوله : ﴿ يؤمنون ﴾ وقوله : ﴿ ذلكم الآيات ﴾ في هذه السورة لظهور الجماعات وظهور الآيات (عم جميع) الخطاب وجمع الآيات قوله : ﴿ أنشأكم ﴾ وفي غيرها : ﴿ خلقكم ﴾ لموافقة ما قبلها وهو ﴿ أنشأنا من بعدهم ﴾ وما بعدها : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ ، قوله ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ متشابهها وغير متشابه ﴾ لأن أكثر ما جاء في القرآن من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله : ﴿ وأنوا به متشابهاً ﴾ ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ ، ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ ، ﴿ وأخر متشابهات ﴾ ، فجاء ، ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ في الآية الأولى و ﴿ متشابهاً وغير متشابه ﴾ في الآية

الأخرى على تلك القاعدة ثم كان لقوله ﴿ تشابه ﴾ معنيان : أحدهما التيس والثاني تساوى وما فى البقرة معناه : التيس فحسب فبين بقوله ﴿ مشتبهاً ﴾ ومعناه : ملتبساً أن ما بعده من باب الالتباس أيضا لا من باب التساوى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء ﴾ فى هذه السورة ، وفى المؤمن : ﴿ خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات فدفع قول قائله بقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ثم قال : ﴿ خالق كل شيء ﴾ وفى المؤمن قبله ذكر الخلق وهو : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ لا على نفى الشريك فقدم فى كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات . قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ وقال فى الآية الأخرى من هذه السورة ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ لأن قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ﴾ وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب مرات وهما : ﴿ جاءكم بصائر من ربكم ﴾ الآيات : فختمها بذكر الرب ليوافق (آخرها أولها) .

قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ وقع بعد قوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ ﴾ فختم بما بدأ . قوله تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ وقال فى النحل : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ فزاد ﴿ من دونه ﴾ مرتين وزاد ﴿ نحن ﴾ لأن لفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ودل على تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله فلم يحتج إلى لفظ ﴿ من دونه ﴾ بخلاف لفظ العبادة فإنها غير مستنكرة وإنما المستنكرة عبادة شيء مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شيء مما دل عليه (أشرك) فلم يكن بد من تقييده بقوله تعالى ﴿ من دونه ﴾ ولما حذف ﴿ من دونه ﴾ من الآية مرتين حذف معه ﴿ نحن ﴾ لتطرد الآية فى حكم التخفيف .

قوله تعالى : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وفى سبحان : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ على الضد لأن التقدير : من إملاق (بكم) نحن نرزقكم وإياهم وفى سبحان : ﴿ خشية إملاق ﴾ يقع بهم (نحن نرزقكم وإياكم) .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ وفى الثانية : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ وفى الثالثة : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ لأن الآية الأولى مشتملة على خمسة أشياء كلها عظام جسام وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا ، فختم الآية بما فى الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان ، والآية الثانية مشتملة على خمسة أشياء يقبح تعاطيها وارتكابها ، وكانت الوصية بها تجرى مجرى الزجر والوعظ فختم الآية بقوله : ﴿ تذكرون ﴾ أى تتعظون بمواعظ الله ، والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصراط المستقيم والتحريض على اتباعه واجتناب متافيه ، فختم الآية بالتقوى التى هى ملاك العمل وخير الزاد .

قوله تعالى : ﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ في هذه السورة ، وفي يونس والملائكة : ﴿ جعلكم خلائف في الأرض ﴾ لأن في هذه العشر الآيات تكرر ذكر المخاطبين مرات فعرفهم بالإضافة وقد جاء في السورتين على الأصل وهو ﴿ جاعل في الأرض خليفة ﴾ ﴿ وجعلكم مستخلفين فيه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ، وقال في الأعراف : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ لأن ما في هذه السورة وقع بعد قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

وقوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ فقيد قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ باللام ترجيحاً للغفران على العقاب ووقع ما في الأعراف بعد قوله تعالى : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فقيد العقاب باللام لما تقدم من الكلام وقيد المغفرة أيضاً بها رحمة منه للعباد لئلا يترجح جانب الخوف على الرجاء وقدم ﴿ سريع العقاب ﴾ في الآيتين مراعاة لفواصل الآيات .

مناسبتها لسورة المائدة

في المائدة محاجة أهل الكتاب ، وفي هذه محاجة المشركين ، والمائدة ذكرت المحرمات بالتفصيل لأنها من آخر القرآن نزولاً ، والأنعام ذكرت ذلك جملة .

من دلائل التوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

المفردات ﴿ الحمد ﴾ : هو الثناء الحسن والذكر الجميل . ﴿ خلق ﴾ الخلق في اللغة التقدير ، أي جعل الشيء ، بمقدار معين على حسب علمه ، وفي أبي السعود : الجعل الإنشاء والإبداع كالخلق ، غير أن الخلق مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، والجعل عام للإنشاء كما قال تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ، وللتشريع والتقنين كما مر في قوله ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام ﴾ (١) ويختص الجعل بأن فيه معنى التضمنين كإنشاء منشأ من منشيء . ﴿ يعدلون ﴾ : يجعلون له عدلاً مساوياً وشريكاً له منافساً . ﴿ أجلا ﴾ الأجل المدة المضروبة للشيء ، وقضى أجلاً بمعنى حكم به وضربه . ﴿ تموتون ﴾ : تشكون في دلائل البعث والتوحيد .

(١) الآية ٩٧ من سورة المائدة .

أثنى سبحانه وتعالى على نفسه ، بما علم به عباده الشاء عليه ، فالحمد لله ، وكل ثناء ثابت له ، إذ هو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وثابت له الخلق والإيجاد والإنشاء والإبداع ، وقد وصف سبحانه وتعالى هنا بصفيتين من موجبات الحمد والثناء ، وهما خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور .

أما خلق السماوات والأرض ، وما فيها من العوالم والنظام والتقدير والإحكام فشيء يعترف به المشركون والمؤمنون على السواء ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾^(١) فهذه السماوات وما فيها من نجوم وأفلاك وشموس وكواكب ، كل له مدار وله شروق وأقول ، بعضها مضى وبعضها له نور ، وهذا الهواء المحيط بالأرض ، وهذا الأثير الذى ينقل الصوت ، أليس هذا يدل على الوحدة والكمال ؟ .

﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات ﴾ وما فيها وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى . أما الأرض ، وما أدراك ما هى ، كوكب سيار وفلك دوار ، كانتا رتقاً ففتقناهما ، وهى معلقة فى الفضاء ، وتدور حول الشمس وعليها الجبال الرواسى وفيها الأنهار والبحار وعليها نسير وفيها نعيش ، وهى كروية ولا يقع الماء من جوانبها ، ولا يتدفق عند قطبيها ، من الذى خلق هذا وقدره ؟ إنه هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد .

الحمد لله قد جعل الظلمات والنور ، وهل الظلمات والنور من المحسوسات أم هما من المعقولات أم اللفظ عام للجميع ؟

والقرآن الكريم جرى على جمع الظلمات وإفراد النور ، لأن ظلمات الشرك والكفر أسبابها وأشكالها وألوانها مختلفة وكثيرة ، أما نور الحق والهدى فطريقها واحد ، وللظلمات الحسية أسباب ، لأن الظلمة تحصل بحجب النور بالجسم والأجسام مختلفة وكثيرة ، وللنور مصدر واحد وإن اختلف قوة وضعفاً ، وشكلاً وصورة .

﴿ ثم الذين كفروا ﴾ بعد هذا كله ﴿ يعدلون ﴾ بالوحدانية الشرك ، ويجعلون لمن خلق وأوجد وأنشأ وأبدع ، شريكاً مساوياً له ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾^(٢) ، أبعد هذا يكون شك فى وحدانية الله وكأله ؟

ثم استأنف القرآن كلاماً خاطب به المشركين والمعاندين ، مذكراً لهم بما هو ألصق بهم ، وهو خلقهم من طين ، أو من ماء مهين ، فهذا أبونا آدم خلق من طين ، وها نحن أولاء نتكون من منى وبويضة ، وهما من دم الذكر والأنثى ، والدم من الغذاء من الحيوان والنبات ، وهما يرجعان إلى الأرض ، وقيل المعنى خلق أبائكم آدم من طين .

(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان .

ثم ضرب لنا أجلا نعيش به في الدنيا إلى وقت محدود ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾^(١) وهناك أجل آخر مسمى عنده هو أجل الدنيا وانتهائها ، ومصيرها إلى الحياة الآخرة لا يعلم به إلا هو ، ولم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا . ﴿ ويسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾^(٢) .

ثم أنتم بعد هذا تمترون وتشكون في خلقكم مرة ثانية ، أى في البعث ، فالذى خلق الجنين في بطن أمه من ماء مهين وجعله يتنفس ، ولو تنفس بالهواء العادى لمات ، وجعله يتغذى بدم الحيض ، وهو الدم القدر القاتل ، أليست هذه حياة عجيبة ؟

حقاً إنها لعجيبة ، والذى أحيانا على هذا الوضع قادر على إحياء الموتى يوم القيامة : ﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ﴾ نعم هو الله الموصوف بكل كمال ، وخالق السماء والأرض وما فيهما ، هذه حقائق معروفة ، وأمر شهد به الخلق جميعا ، وفي ابن كثير معنى هذه الآية المدعو الله في السماوات وفي الأرض أى يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السماوات ومن في الأرض ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا إلا من كفر ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾^(٣) أى هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ خير بعد خبر وصفة أخرى ، وقيل المعنى هو الله يعلم سركم وجهركم فى السماوات والأرض ويعلم ما تكسبون فهو سبحانه العليم الخبير .

سبب كفرهم وعاقبته

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾

المفردات ﴿ معرضين ﴾ : الإعراض التولى عن الشيء .. ﴿ بالحق ﴾ : أى بالأمر الثابت المتحقق فى نفسه والمراد به هنا الدين . ﴿ أنباء ﴾ جمع نباء وهو الخبر المهم . ﴿ من قرن ﴾ : القرن من الناس القوم المقترنون فى زمن واحد ، ومدته من الزمن مائة سنة وقيل غير ذلك . ﴿ السماء ﴾ : المراد المطر . ﴿ مدرارا ﴾ مبالغا فيه فى الكثرة والغزارة .

ما تقدم من الآيات كان فى إثبات الوحدانية ، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى وإثبات البعث وأن

(١) الآية ٣٤ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

الله الذى يعترفون له بخلق السماوات والأرض هو الآله المعبود بحق ، المحيط علماً بكل شيء لا إله إلا هو ... ولكمهم أشركوا بالله وكذبوا رسله ولم يؤمنوا بهذه الآيات الكونية ولا الآيات القرآنية التى تنادىهم ليصدقوا بها ويصدقوا برسولها ﷺ وهذه الآيات تشير إلى سبب التكذيب والكفر .

وما تأتيتهم أى آية من آيات ربهم الذى رباهم ، وتعهدهم فى حالتى الضعف والقوة وكفل لهم الرزق ، وآتاهم من كل شيء ، وخلق لهم جميع ما فى الأرض ﴿ وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ ﴿ وما يأتيتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ من سورة الأنبياء .

فهم لم ينظروا نظرة اعتبار وتأمل ، ولم يجردوا أنفسهم من قيد التقليد وحى العصبية ، وحماسة الجاهلية ، فهم إذا أتتهم آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ (١) .

فبسبب هذا قد كذبوا بالحق والدين الصدق ، الذى دعا إليه القرآن الكريم ، وجاء به النبى الأمين ، من الدعوة إلى العقائد الصحيحة ، والآداب الكريمة والمثل العليا ، ولكون الإعراض طبيعة فيهم وغريزة ، كذبوا بسرعة فائقة عقب الدعوة مباشرة وكان عاقبة أمرهم خسرانا ، وسوف يأتيتهم أخبار وأحوال الذى كذبوا به وهو القرآن ، سيأتيتهم نبأ هذا التكذيب وعاقبته ﴿ وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٢) ، وقد أتى حيث هزموا بغزوة بدر ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفوجا ، هذا فى الدنيا .

وقال الرازى فى تفسيره : كان حال هؤلاء فى كفرهم على ثلاث مراتب : إعراض عن التأمل ، ثم تكذيب ، وثالثة الأتافى استهزاء بآيات الله وكلامه ، عجباً لهؤلاء . ألم يعلموا نبأ من كان قبلهم ، وخبرهم مع رسلهم وكيف كان ما لهم ؟ كم أهلكتنا من قبلهم من قوم أعطيناهم ما لم نعط لكم ، ومكانهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وأعطيناهم من أسباب الاستقلال والملك والغنى ما لم نعط لكم ، أفكان هذا كله مانعا لنا من إنزال العقوبة الصارمة بهم لما أعرضوا وكذبوا واستهزؤا ؟ ﴿ أكفركم خير من أولئك أم لكم براءة فى الزبر ﴾ (٣) لا هذا ولا ذاك .

نعم كان قوم عاد وثمود ، وقوم فرعون ، وإخوان لوط ، على جانب كبير من رغد العيش وسعة السلطان ، متعناهم ووسعنا لهم فى الرزق ، وأرسلنا عليهم المطر غزيراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحت بيوتهم ، ووسط مزارعهم ، فكما كفروا بأنعم الله أذقناهم العذاب الشديد ، وأهلكتناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين ، وجيلاً آخر أدرك ما حل بغيره فسار على غير منواله ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ * إنه هو يبدىء ويعيد* وهو الغفور الودود ﴿ (٤) والمسلمون اليوم أخوف ما أخاف عليهم هذا

(١) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٤٣ من سورة القمر .

(٣) الآية ٨ من سورة هود .

(٤) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة البروج .

الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها عملياً ، أخاف عليهم أن يحيق بهم عاقبة أمرهم ، فهي سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

شبهاتهم في الرسالة والرد عليها

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ لَوَأَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لِمَ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾

المفردات ﴿ كتابا ﴾ : صحيفة مكتوبة . ﴿ قرطاس ﴾ : الورق الذي يكتب فيه .

﴿ وللبسنا ﴾ : اللبس الستر والتغطية ، والمراد جعلنا أمرهم يلتبس عليهم فلا يعرفونه .

كان النبي ﷺ يضيق ذرعاً بقومه من جراء تكذيبهم وعنادهم . ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك ﴾ (١) ، وكانوا يكثرُونَ في طلب الآيات الخاصة ، فرد الله عليهم بما ألزمهم .

ولو نزلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً من السماء في قرطاس حتى ولو كان هذا الكتاب معلقاً بين السماء والأرض وفيه دعوتهم إلى الدين بالحجة لما آمنوا به ، ولما صدقوك في ذلك بل ولقالوا : ما هذا إلا سحر وخيال ظاهر ليس فيه حقيقة ، وانظر إلى تعبير القرآن الكريم : نزلنا بالتشديد ، وقوله : ﴿ كتابا في قرطاس ﴾ ، والكتاب لا يكون إلا فيه ، ثم قوله ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ ، وقلوبوا فيه وبالغوا في ذلك ، كل هذه أساليب تفيد المبالغة وتأكيد النزول وتأكدهم منه ، ومع هذا يقولون : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ، وكان الكفار قد اقترحوا اقتراحين أولهما : أن ينزل على الرسول ملك من السماء يروونه ويكون معه نذيراً ومؤيداً له ونصيراً ، ذلك أنهم يفهمون أن الرسول بشر والرسالة تتنافى مع البشرية ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ (٢) . ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ (٣) الفرقان ، وقد حكى الله عنهم هذا كثيراً في سورة هود وإبراهيم وغيرهما ، وقد رد الله على اقتراحهم هذا بأنه لو أنزل الله ملكاً كما اقترحوا لقضى الأمر وهلكوا ثم لا ينظرون ولا يمهلون ، إذ جرت سنة الله في خلقه ، إذا تعصب قوم وطلبوا آية غير التي أنزلت إليهم ، وأجيبوا إلى طلبهم ، ثم لم يؤمنوا ، يهلكهم الله بعدابه ويقضى عليهم . وهؤلاء من أمة الدعوة المحمدية ، وقد قضى الله ألا يهلكهم بغذاب الاستئصال تكريماً للنبي ﷺ وعسى أن يأتي من نسلهم من يعبد الله حقاً ، وقد كان هذا .

الاقتراح الثاني : هلا نزلت الملائكة علينا بالرسالة ، وكان الرسول ملكاً لا بشراً ﴿ ما هذا إلا بشر

(١) الآية ١٢ من سورة هود . (٢) الآية ٣٣ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٧ من سورة الفرقان .

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴿١﴾ فأنت ترى أن اقتراحهم الثاني مبني على الغرور الكاذب والجهل الفاضح ، وأن هذا النبي الأمين الصادق الكريم لا يستحق هذه الرسالة ، فإن كان ولا بد من إرسال بشر فنحن أولى منه ﴿٢﴾ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أنهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴿٣﴾ ؟ .

فيرد الله عليهم : لو جعلنا الرسول ملكا لجعلناه رجلا حتى يمكن التفاهم معه والأنس به ومخاطبته ، ولو جعلناه بشرا لعاد الأمر كما كان وللبسنا عليهم واختلط الأمر عليهم ، فإن هذا الرجل سيقول لهم إني رسول الله كما يقول ﷺ ، أما اختصاص محمد دون غيره بالرسالة وتشريفه بالنبوة فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

تسليية النبي ﷺ

وَلَقَدْ آسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

المفردات ﴿ استهزئ ﴾ : الاستهزاء السخرية والاحتقار ويتبع ذلك غالباً الضحك .
﴿ فحاق ﴾ : أحاط بهم فلم يكن لهم منه مخرج .

يخبر الله تعالى نبيه الكريم بصيغة القسم ، إن الكفار قد استهزأوا قديماً برسول كثير عددهم ، عظيم شأنهم رسل من قبلك ، فليس استهزأؤهم بك بدعاً بل أنت مسبوق في ذلك ، فلا تحزن عليهم ، ولأنك في ضيق مما يعملون فهذا شأن الكفار قديماً وحديثاً . واعلم أنه قد أحاط بهم ، فلم يكن لهم منه مخرج ، وليس لهم مفر ، ولن يفلتوا من عاقبة فعلهم أبداً .

فآلية إرشاد للنبي ﷺ ببيان سنة الله في الخلق وأن العاقبة للمتقين ، وأن العذاب والحزى للكافرين والمستهزئين ﴿١١﴾ إنا كفيناك المستهزئين ﴿١٢﴾ .

وإن ارتبتم أيها المشركون في ذلك فقل لهم : سيروا في الأرض وتنقلوا فيها لتقفوا بأنفسكم على تاريخ من سبقكم من عاد وثمود ، وطسم وجديس وقوم فرعون وإخوان لوط (فما رآه كمن سمعا) سيروا في الأرض ثم انظروا واعتبروا كيف كان عاقبة المكذبين ؟

أسلوب آخر في إثبات الوحدانية والبعث

قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٠﴾ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ

(١) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون . (٢) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف . (٣) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ
 قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
 عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

المفردات ﴿ كتب ﴾ : فرض وأوجب على نفسه . ﴿ ليجمعنكم ﴾ : المراد ليحشرنكم .
 ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ : المراد بالخسارة هنا ترك ما يقتضيه العقل والعلم . ﴿ ما سكن ﴾ : من
 السكون أو السكنى والمراد عدم الحركة . ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ منشئهما ومبدعهما على غير
 مثال سابق . ﴿ يصرف عنه يومئذ ﴾ : يبعد عنه . ﴿ رحمه ﴾ : أنجاه من الهول الأكبر .

ما هو هذا القرآن يعود إلى إثبات الوجدانية لله والكمال له ، وإثبات البعث والجزاء بأسلوب
 آخر ، ونمط عال في الأداء ، وطرقا للسمع من جميع الأنحاء ، حتى لا يمل السامع مع زيادة التكرير
 والتثبيت فهذا هو المقصود المهم والهدف المرجو للقرآن الكريم .

قل لهم يا محمد لمن ما في السماوات والأرض ؟ ولمن هذا الكون ما فيه وهذا الوجود وما يحويه ؟
 لمن هذه السماوات وقد ازينت ؟ وهذه الكواكب وقد انثرت .
 ولمن هذه الأرض وقد مدت ؟ وفيها الأنهار الجوارى والجبال الرواسي والعوالم التي لا يحيط بها إلا
 خالقها . قل لهم : هذا كله لله واهب الوجود ، الكبير المعبود ، مالك الملكوت ذو الرحمة والجيروت ،
 الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

وهذا سؤال وجوابه ، قد أمر بهما ﷺ في القرآن لأنه هو الجواب المتعين ، ولا يمكن لمنصف أن
 ينكر هذا أبدا ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ فهم معترفون بهذا ولكن لسوء
 تفكيرهم يقولون في الأصنام : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (١) فبئس ما يصنعون ، على أن في
 السؤال وجوابه تبكيتهما وتوبيخا ، وقد بنى عليه شيء آخر من لوازمه ، قد يجهله المسئولون أو ينكرونه
 لعنادهم وحماتهم .

فالله الذي برأ السماوات والأرض ، وله كل ما فيها مما لا نعلم عنه إلا قليلا ومما هو كالذرة
 بالنسبة للجبل الأشم ، قد أوجب على نفسه ، وقوله على نفسه لتأكيد الوعد وتحقيقه أوجب الرحمة على
 عباده إذ هو الرحمن الرحيم ، ليجمعنا ليوم القيامة ويحشرنا لناخذ الجزاء على أعمالنا ﴿ فمن يعمل مثقال
 ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٢) . ﴿ والله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين
 أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (٣) والثواب والعقاب على الأعمال من مظاهر الرحمة

(١) الآية ٣ من سورة الزمر . (٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٣) الآية ٣١ من سورة النجم .

بالخلق حتى يعرف الخلق ذلك ومتى علم هذا كف باغى الشر عن شره ، وأسرع باغى الخير فى عمله ، مع أنه ليس من العدل ولا الرحمة ألا يجازى المحسن على إحسانه وألا يعاقب المسيء على إساءته ، وكذلك من مظاهر الرحمة هدايتنا إلى معرفته ، ونصب الأدلة على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السماوات والأرض .

وقد سبقت رحمته غضبه وزادت عليه ، فهو يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، وقد تضاعف أضعافاً لمن يشاء ، والسيئة بمثلها فقط ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾^(١) وأخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ممن يكذبون بيوم القيامة ، وهم من فسدت فطرتهم ، وساءت نفوسهم فلم يهتدوا بنور الدين ، وحرموا أنفسهم من النظر والتفكير فى هذا الكون وآياته ، بعين العقل والحكمة ، وإنما أعماهم التقليد وسوء الرأى وحمى العصبية وداء الحسد عن النظر الصحيح والفهم السليم ، ولم تكن لهم عزيمة صادقة وإرادة حازمة ، تجعلهم يتركون ما كان عليه الآباء إلى ما وافق العلم والعقل والرأى ، نعم هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون أبداً بالبعث والثواب والعقاب ، لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ولم يتحرك وله ما تحرك ولم يسكن ، فهو المتصرف تصرفاً كاملاً فى كل شىء خصوصاً ما سكن وخفى فى الليل ، ومن باب أولى ما تحرك وسكن فى النهار .

فأنت معى أن القرآن تعرض لجميع الأمكنة فى السماوات والأرض ولكل الأزمنة فى الليل والنهار ، وهذا إشارة إلى كمال إحاطته وتمام تصرفه ، وهو السميع لكل قول ودعاء ، العليم بكل فعل ونية .

ومن نتائج ذلك عدم اتخاذ الأولياء من دون الله . قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ وليا ينصرنى ؟ أو يدفع ضرراً عنى ، أو يجلب خيراً لى ؟ والاستفهام لإنكار اتخاذ غير الله وليا من الأصنام والشفعاء ، أما اتخاذ الأصحاب والأصدقاء من المؤمنين فلا شىء فيه مادام فى حدود كسبه وتصرفه الذى منحه الله لبنى جنسه ، قال لهم : أغير الله تأمرونى أعبد أياً الجاهلون ؟ أغير الله فاطر السماوات والأرض ومبدعهما لأعلى مثال سابق ، أغير الله أتخذه وليا يلى أمورى ؟ فإن من فطر السماء والأرض وأبدعهما من غير تأثير ولا شفيع يجب أن يُخص بالعبادة وحده ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾^(٢) .

والله سبحانه وتعالى يطعم ويرزق الناس وليس فى حاجة إلى أحد ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾^(٣) ، وفى هذا تعريض بمن يتخذون من العباد آلهة وهم محتاجون إلى الطعام وما يتبعه من الحاجة إلى الخلاء ، أما من يعبد غير الإنسان فعبادته ضرب من الخيال والجنون . أما وقد ظهرت هذه الحقائق بادية للعيان ، فقل يا محمد إنى أمرت أن أكون أول من أسلم وجهه لله وانقاد ، حيث ثبت أن له ما فى السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصريفاً وحكما ، وله ما سكن وما تحرك ، وهو السميع البصير ، فاطر السماوات والأرض ، واهب الرزق والحياة ، غير محتاج لأحد ، ليس كمثل شىء ، لهذا

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة . (٣) الآية ٥٧ من سورة الذاريات .

أمرت أن أكون أول من أسلم ، ونهيت عن الشرك بالله وإني أخاف إن عصيت ربي عذاباً عظيماً يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وإذا كان هذا حال النبي ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، المعصوم خاتم النبيين والمرسلين ، فما بالناس نحن ؟ وما بالك يا ابن آدم ؟ وإنك لمسكين مغرور حيث تتعلق بالأوهام والالتجاء لغير الله .. من يدفع عنه يومئذ ذلك العذاب فقد رحمه الله ونجاه ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾^(١) وذلك هو الفوز الواضح العظيم .

الأمر كله لله

وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
 وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ
 بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَن لَّا نَذِرُكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ
 ءَ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

المفردات ﴿ الضر ﴾ : وضده النفع هو ما يسوء الإنسان في نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله .
 ﴿ بخير ﴾ : هو ما يرغب فيه الكل وتطمح إليه النفس كالعقل والعلم والعدل وضده الشر .
 ﴿ القاهر ﴾ : القهر الغلبة والتذليل معا . ﴿ شهادة ﴾ : هي إخبار عن علم ومعرفة واعتقاد بنى على المشاهدة بالبصر أو البصيرة .

هذه الآيات تملأ قلوب المؤمنين ثقة بالله واعتماداً عليه وحده ، وعقيدة المسلم (إن الأمر كله لله) . الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع وإرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، فإذا مسك ضر أو أصابك ما تكرهه في نفسك أو مالك أو عرضك فاعلم بأنه لا يكشف هذا الضر إلا الله ، فكل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، إنه عز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فالإله منقلبه . وكما أنه هو الذي يكشف الضر ، فهو الذي ينعم بالخير من عافية وراحة بال وهدوء حال وورق ومال وولد . ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فإني توفكون ﴿^(٢) . سبحانه لا خالق سواك ولا رازق غيرك ، جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ

(٢) الآيات ٢ ، ٣ من سورة فاطر .

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

كان يقول : ﴿ اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ : هذا أسلوب حصر وقصر ، فلا قاهر غيره ولا غالب سواه ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، باق بلا أمد ، حكيم تنزهه عن العبث ، خبير علم حقائق الأشياء ودقائقها ، تنزهت عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفـارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تياسنَّ فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنَّ فإن الصانع الله
إذا بليت فسق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله فى كل لك الله

قوله تعالى : ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ : هذا خطاب كريم من رب كريم موجه إلى رسول كريم فيه يقين للقلوب المؤمنة منه وإفحام لقلوب المعاندين : ﴿ أى شىء أكبر شهادة ﴾ ؟ ويأتى الجواب فى وضوح وصراحة ﴿ قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ . وحيث إنه لا شىء أكبر شهادة من الله فكفى بالله شهيداً وكفى به عليماً وكفى به خبيراً . من أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد أصدق من الله قيلاً ؟ لا أحد . أنتم أعلم أم الله ؟ الله يعلم وأنتم لا تعلمون . الله شهيد بينى وبينكم ؟ فهو الحق وقوله الحق ووعد الحق ولقاؤه حق ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون ﴾ : الوحى هنا خاص بالأنبياء ، وهو إعلام الله تعالى نبيا من أنبيائه بحكم من أحكامه بواسطة أو بغير واسطة ، أو هو عرفان يجده النبى فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ، قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء

(١) أخرجه البخارى فى الأذان (١٥٥) وفى الاعتصام (٣) وفى القدر (١٢) وفى الدعوات (١٧) . وأخرجه مسلم فى الصلاة (١٩٤) ،

(٢٠٥ ، ٢٠٦) وفى المساجد (١٣٧ ، ١٣٨) . وأخرجه أبو داود فى الصلاة (١٤٠) وفى الوتر (٢٥) وفى الأدب (٨٨) .

وأخرجه الترمذى فى الصلاة (١٠٨) . والنسائى فى التطبيق (٢٥) وفى السهو (٨٥ ، ٨٩) . وأخرجه الدارمى فى الصلاة (٧١) ،

(٨٨) . والإمام مالك فى القدر (٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٧) وفى (٤ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،

(٢) الآية ٢٥ من سورة النور .

(٢٨٥ ، ٢٥٤) .

حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ؟ إنه على حكيمة * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴿١﴾ .

فتأمل معي كيف اختلفت وسائل الوحي وطرقه وكيف تعددت أشكاله : فقد يكون بالقذف في القلب كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » ﴿٢﴾ .

وقد يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى تكليما ، وقد يكون بواسطة الملك جبريل فيوحي الله ما يشاء بإذنه تعالى ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ ﴿٣﴾ .

فللوحي حرس ملائكي وحفظة كرام ، وجبريل هو كبير أمناء وحي السماء وسفير الأنبياء الذي يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ﴿٤﴾ .

فانظر كيف جعل الوحي روحا يحيى الموات ونورا يبدد غياهب الظلمات . ثم تأمل معي كيف كانت كلمة الوحي الناطقة بالصدق . صدق الوحداية وأساس الرسالات : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وصلوات ربي وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من أعلنتها في سمع الزمان صريحة مدوية : « أفضل ما قلته أنا والنيبون قبلى : لا إله إلا الله » فمن ادعى وحيا بعد رسول الله فإنه كذاب أشر ، ومن ادعى رسالة وقال إن محمدا خاتم النبيين ولم يختم المرسلين قلنا : إن النبوة أعم من الرسالة ، فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص . لذا نقرر أن لا نبوة بلا وحي ولا رسالة بلا نبوة ، وقد أخبرنا أصدق القائلين بأنه أكمل الدين وأتم النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . فقد أنزل على الرسول في حجة الوداع قوله الذى انتظم أربع بشرىات : ﴿ اليوم يمس الدين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ﴿٥﴾ . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴿ . فمن ادعى رسالة بعد رسول الله كما يقول أصحاب الأديان الوضعية التى صنعها الاستعمار على عينيه وأعدق عليها من ماله وأجلب عليها بخيله ورجله ، من ادعى منهم رسالة سألتناه : ما طبيعة هذا الدين الذى جئت به إن قال إنه الإسلام قلنا له : لقد أكمل الله الدين ، فإذا كان قد أكمله فإن دين الله ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً وإذا كان قد أتم النعمة فنعمة الله لا تنقص أبداً . وإذا كان قد رضى لنا الإسلام دينا فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ..

(١) الآيات ٥١ - ٥٣ من سورة الشورى . (٢) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن . (٣) الآية ٢ من سورة النحل . (٤) الآية ٣ من سورة المائدة . (٥) أخرجه ابن ماجه فى التجارات (٢) .

فإذا قال إنه غير الإسلام . قلنا له : بيننا وبينك بعد المشرقين فبئس القرين : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أى لأنذركم بالقرآن ، فأنا لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد ، كما أنني أنذر من بلغه هذا القرآن في مشارق الأرض ومغاربها من إنس وجان . وهذا دليل على عموم رسالته ودوامها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . فدعوة الإسلام دعوة عالمية خاتمة دائمة فقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن بلغ ﴾ أى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه . جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال : ﴿ بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله ﴾^(٢) . وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر .

قوله تعالى : ﴿ أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإنى بريء مما تشركون ﴾ هذا تقرير لقضية التوحيد التي قامت عليها السماوات والأرض . فبعدما أثبتت الآية في صدرها أن الله أكبر شهادة وهو شهيد بينه وبينهم أكدت هذا المعنى بسؤال وجواب . جاء السؤال مصوراً بتلك العبارة الرصينة : ﴿ أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ ، وجاءت الإجابة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ قل لا أشهد ﴾ وجاء التوكيد في صورة من روائع البيان وتصديق الجنان : ﴿ قل إنما هو إله واحد ﴾ إنه نداء الفطرة السليمة التي ولد كل مولود عليها ولكن كدّرت صفوها ظلمات القلوب الجائرة التي عبثت بها الأهواء الزائفة . قال ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه)^(٣) . نعم إنه نداء الفطرة فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لأجيبك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾^(٤) .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثاز ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وبعد إثبات الوحداية تأتي البراءة من كل ما يشركون ، وما أجل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم مع

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) أخرجه البخارى في الأنبياء (٥٠) . والترمذى في العلم (١٣) . والدارمى في المقدمة (٤٦) . والإمام أحمد في (٢ ، ١٥٩) ، (٢٠٢ ، ٢١٤) .

(٣) أخرجه البخارى في الجنائز (٧٩ ، ٩٢) وفي تفسير سورة ٣٠ (١) وفي القدر (٣) . وأخرجه مسلم في القدر (٢٢٠ - ٢٥) . والترمذى في القدر (٥) . والإمام مالك في الجنائز (٥٣) . (٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

قومه : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقن ، وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴿ (١) .

كان لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه صنم يعبده أيام الجاهلية ، فجاء ذات يوم ليقدم له مراسم الطاعة والولاء ، فوجد بللاً برأسه فنظر فى الأمر : من الذى أصابه بالبلل فوجد ثعلبا ، فعلم أنه بال على صنمه ، فنظر أبو ذر إلى معبوده وقال فى عبارة رصينة نسج خيوطها من ضياء التوحيد قال :

أرب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب
فلو كان ربّاً كان يمنع نفسه فلا خير فى رب ناتته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها وآمنت بالله الذى هو غالب

حقا إن الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة كفى به وليا وكفى به نصيرا .

افراء على الله

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِن شِرْكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ : المراد بهم اليهود والنصارى . ﴿ يعرفونه ﴾ : أى النبى صلى الله عليه وسلم . ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ : المراد بالتشبيه إثبات الحقيقة فى كل . ﴿ تزعمون ﴾ : أى تدعون كذبا لذا قالوا : زعموا مطية الكذب . ﴿ فتنتم ﴾ : الفتنة الاختبار والمراد عاقبة الشرك . ﴿ كذبوا على أنفسهم ﴾ : خدعوها بالأباطيل .

روى أن كفار قريش سألوا أهل الكتاب عن رأيهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى دينه فقالوا : ليس فى التوراة والإنجيل شىء يدل على نبوته ، وقد شهد له الله بالرسالة والصدق فبقى أن يثبت كذب أهل الكتاب فى شهادتهم ومن هنا كانت المناسبة .. وقد روى « أن عمر بن الخطاب لما قدم المدينة سأل عبد الله بن سلام عن هذه المعرفة فقال يا عمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى . وأشهد أنه حق من عند الله » .

إن الذين أنكروا نبوة خاتم الأنبياء إنما أساءوا إلى أنفسهم فلن يضير الشمس أن ينكر ضوءها من بعينه رمد :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
ولن يضير البحر الطهور أن يلقي فيه غلام بحجر :
ما يضرب البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر
ولن يعيب الورود ألا يشم عطرها مزكوم :
وما ضرَّ الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها
وكما قال الحكيم المتنبى :

ومــن يك ذا فم مـر مريض يجد مـرأ به الماء الــــزلالا

إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ كالذى أراد أن يثير التراب على السماء فأثاره على نفسه وبقيت السماء هي السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .. إن الدليل على صدق الإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام أنه أمرنا أن نؤمن بجميع الأنبياء . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾^(١) .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٢) وقد جمع الله له الأنبياء والمرسلين في ليلة الإسراء وقال له : ﴿ وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أ جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾^(٣) فاستحى الرسول أن يسأل .

لقد قال القرآن كلمته الحاسمة التي جاءت فصل الخطاب في تلك القضية ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيم أجورهم وكان الله غفورا رحيمًا ﴾^(٤) .. وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾^(٥) وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾^(٦) إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ قد خسروا أنفسهم . فالله تعالى

(٤) الآيات ١٥٠ - ١٥٢ من سورة النساء .

(٥) الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

يقول في حديثه القدسي الجليل : (وعزتي وجلالي لو سلكوا إلى كل طريق ، واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

إن الذين أنكروا نبوة محمد وجحدوا رسالة الإسلام خسروا أعلى ما يملكون ، لم يخسروا مالا ولا ولدا ولا سلطانا خسروا النفوس ، فهم لا يؤمنون كما قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾^(١) . وكما قال جل شأنه : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾^(٢) ... ثم ينتقل النظم الكريم إلى مشهد من مشاهد القيامة مع هؤلاء الكاذبين المفتريين فيقول جل شأنه : ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾^(٣) .

هذا سؤال يوجهه علام الغيوب في ساحة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة يوم لا ينفذ مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ، يقول الله للمشركين : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم ينفعون ويضرون ويخلقون ويرزقون ؟ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت جاءت الإجابة عنه بالكذب والبهتان والحنث في يمين الله . قال تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وقد فسرت الفتنة هنا بمعاني كثيرة : فسرت بالاختبار والابتلاء والحجة والمعدرة ، والمقصود بهذا نتيجة الابتلاء والاختبار . وقد أقسموا بالله كذبا وبهتاناً وقالوا في نص الحلف : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فاعجب لجرأتهم على الله أيقسمون بالله كذبا أمام من يعلم السر وأخفى ؟ أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟

عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال : يا ابن عباس سمعت الله يقول : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فقال : إنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد ، فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتبون الله حديثا ، فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه . لذلك كان التعقيب على قولهم ، يأخذ بالألباب ، فقد يستولى عليك العجب عندما تقرأ قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ إنهم لم يكذبوا على الله :

الله يدرى كل ما تضمهر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الكل لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

(١) الآية ٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .

إنهم كذبوا على أنفسهم ، وجاءت نتيجة الكذب أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ .

من مواقف الكفار

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَبْغِدُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾ وهم ينهون عنه وينثنون عنه وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

المفردات ﴿ الأكنة ﴾ : جمع كنان وهو الغطاء والستر . ﴿ وقرا ﴾ : صمما وثقلا في السمع . ﴿ آية ﴾ : علامة دالة على صدق الرسول . ﴿ أساطير ﴾ : جمع أسطورة وهي الخرافة . ﴿ وينأون ﴾ : يبعدون عنه ويعرضون .

هذه بعض مواقف أهل الكفر الذين جبلت قلوبهم على الإنكار والجحود فمن هؤلاء المعاندين من يأتي ليستمع إلى ما يقوله صاحب الرسالة العصماء وما يتلوه عليهم من الآيات لم يأت هو بقصد الهداية ، إنما جاءوا ليهزأوا مما يتلى عليهم ، وقد علم الله منهم ذلك فجعل على قلوبهم أكنة وأغطية وحجباً تمنع وصول الحق إليها ، هذه الأكنة مانعة من الفقه والفهم والمعرفة كما قال الله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ (١) . وكما قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ (٢) . وكما أن القلوب حجبت عن الفقه والمعرفة فإن الأذان قد صمت عن سماع ما يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ففى الأذان وقر وصمم كما أن على القلوب أكنة ، كما أن النفوس قد أصرت على عدم الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وإن يروا كلاً آية لا يؤمنوا بها ﴾ (٣) . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (٤) .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يدها ، إننا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا ﴾ (٥) .

فمن أين يأخذ الحق طريقة إلى هؤلاء وقد سدت منافذ المعرفة . وأحيطت مجالات الفهم بأسوار عالية تمنع من تسرب النور إلى القلوب ، ومن مواقف هؤلاء المعاندين أنهم إذا جاءوك ، يا مبعوث العناية الإلهية ويا شمس الهداية الربانية ، لا يأتون طالبين الحق إنما يأتون محاولين ليدحضوا الحق بالباطل . ماذا

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنفال . (٢) الآية ٢٥ من سورة الأنعام . (٣) الآية ١٧١ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٥٧ من سورة الكهف . (٥) الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .

يقولون إذا جاءوك؟ يقولون: إن هذا إلا أساطير الأولين. هكذا كانوا يصفون آيات القرآن: ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾^(١)، ويقصدون بالأساطير الخرافات والخزعبلات. ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾^(٢) ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿ وهم ينهون عنه وينثون عنه ﴾: وهذا موقف آخر من مواقفهم السيئة القبيحة. جمعوا في هذا الموقف بين سواتين: الأولى: أنهم ينهون الناس عن اتباع سيد الخلق صلوات ربه وسلامه عليه. والثانية: أنهم يناوون ويتعدون عن اتباع الحق، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾، فالنهي صد عن سبيل الله، والنأي كفر، فاستحق هؤلاء أن يحكم عليهم مولانا جل شأنه بالهلاك والإهلاك قال تعالى: ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾.

من مشاهد القيامة

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا أَحْيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات ﴿ وقفوا على النار ﴾: يقال وقف على الشيء عرفه وتبينه، ووقف نفسه على الشيء حبسها، ومنه وقف العقار على الفقراء. ﴿ ياليتنا ﴾: كلمة يراد بها التمني وهو طلب الأمر المستحيل أو ما فيه عسر. ﴿ نرد ﴾: نرجع إلى الدنيا. ﴿ بدأ لهم ﴾: ظهر ووضح

هذا مشهد رهيب من مشاهد القيامة. إنها سلسلة متصلة الحلقات من الأهوال الجسام، تبدأ من سكرات الموت. قال تعالى: ﴿ إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾^(٤) ثم تدرج السلسلة في حلقاتها: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾^(٥). ثم ماذا في عالم البرزخ: ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾^(٦) ثم ماذا: ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾^(٧) ثم تتحرك الأهوال حتى يبعثوا من القبور: ﴿ فإذا هم من الأجدات إلى ربهم ينسلون، قالوا يا أولينا من بعثنا من مرقدنا ﴾؟ فيقال لهم: ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان.

(٢) الآية ٥ من سورة الكهف.

(٣) الآية ٦ من سورة الفرقان.

(٤) الآية ٤٦ من سورة غافر.

(٥) الآية ٢٥ من سورة نوح.

(٦) الآية ٩٣ من سورة الأنعام.

(٧) الآية ٩٤ من سورة الأنعام.

المرسلون ﴿١﴾ . ثم يأتي الحشر : فكيف حالهم في هذا اليوم العصيب ؟ قال تعالى : ﴿ ومن يضل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ﴿٢﴾ ، ثم يأتي دور الصحف حيث يأخذون كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم ، فيقول كل منهم : ﴿ ياليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حساييه ، ياليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه ﴾ ﴿٣﴾ فيقال من قبل الحق جل جلاله : ﴿ خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾ ﴿٤﴾ .

ثم ماذا ؟ إلى المشهد المهيب . إنهم وقفوا على النار ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ ﴿٥﴾ فماذا يقولون وقد وقفوا على النار موقف التمني والندم ؟ يقولون : ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ ﴿٦﴾ .

ندم البغاة ولات ساعة مندم

وهل ينفع الندم ؟ ليت . وهل ينفع شيء ؟ ليت . ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * ياويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ ﴿٧﴾ وهل تنفع عودتهم إلى الدنيا ؟ قال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير . فذقوا فمالظالمين من نصير * إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ ﴿٨﴾ .

فماذا كان الجواب على تمنيتهم هذا ؟ وما نيل المطالب بالتمنى . قال تعالى : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ أى ظهر واتضح لهم ما كانوا يخفون من الكفر والتكذيب بالقيامة ومشاهدها . فمن كفر بشيء أخفاه ومن كذب بشيء طواه في نفسه . لقد كانوا يكذبون بالنار فرأوها رأى العين . ﴿ يوم يُدْعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحّر هذا أم أنتم لا تبصرون * أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ﴿٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ . هذا إخبار ممن يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، إخبار عن حال هؤلاء المارقين المراوغين إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والتكذيب والجحود ، وإنهم لكاذبون فيما قالوه : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قوله تعالى ﴿ بل ﴾ حرف إضراب إبطل يفيد إبطل ما قالوه سابقاً .

- | | |
|-----|----------------------------------|
| (١) | الآيات ٥١ ، ٥٢ من سورة يس . |
| (٢) | الآية ٩٧ من سورة الإسراء . |
| (٣) | الآيات ٢٥ - ٢٩ من سورة الحاقة . |
| (٤) | الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة الحاقة . |
| (٥) | الآية ٥٣ من سورة الكهف . |
| (٦) | الآية ٢٧ من سورة الأنعام . |
| (٧) | الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة الفرقان . |
| (٨) | الآيات ٣٧ ، ٣٨ من سورة فاطر . |
| (٩) | الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور . |

نعم . لعادوا لما نهوا عنه وقالوا : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ، هكذا يخبر علام الغيوب عن حقائق هؤلاء إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ضلالهم وبهتانهم وقولهم : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ فهم في زعمهم سيموتون ولا شيء بعد الموت وما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر كما قالوا . وجاء الرد عليهم من العلي الأعلى : ﴿ قل بلى ورنى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

من مواقف الآخرة

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَبِيزَةُ إِلَّا دُنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات ﴿ الساعة ﴾ : هي الوقت المحدد المعروف وتطلق في لسان الشرع على الوقت الذي ينقضى به أجل الدنيا وتبدأ به الحياة الأخرى . ﴿ بغتة ﴾ : فجأة . ﴿ يا حسرنا ﴾ : الحسرة : الندم على ما فات كأن المتحسر قد انحسر وأنكشف عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه . ﴿ ما فرطنا ﴾ : التفريط التقصير في الشيء مع القدرة على فعله . ﴿ أوزارهم ﴾ : جمع وزر : وهو الحمل الثقيل ويطلق في لسان الشرع على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذي يثقل ظهره . ﴿ لعب ﴾ : هو العمل الذي لا يقصد به نفع أو دفع ضرر . ﴿ هو ﴾ : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

ما زال النظم الكريم يعرض لصور أهل الشرك والعناد والجحود فقد وقفوا على النار في المشهد السالف ، وهم في هذا المشهد وقفوا بين يدي الحق جل جلاله فيسألهم سبحانه وهو العليم الخبير يسألهم سؤال تبيكيت وتقريع وتوبيخ : ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ أى أليس هذا الذى ترونه من بعث وحشر ونشر وصحف وصراط وميزان وجنة ونار . فماذا يقولون ؟ هل ينكرون أو يجادلون أو يراوغون أو يمارون ؟ لقد انقطعت المعاذير وبرح الخفاء وانكشفت الأسرار .

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ (١) .

﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ . هذه إجابة بلغت في صراحتها ووضوحها مبلغ الشمس وهي تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، فيصدر الله سبحانه حكمه العادل فيهم مدعماً بالحيثيات . قال : ﴿ فذوقوا

عظمة الله ووحدايته ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شهدنا ﴿١﴾ ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ﴾ (٢) .

وكذلك ﴿ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ ليعلم علم اليقين ، وليكون من المؤمنين ، فماذا كان جواب قومه الذين حطم إبراهيم أصنامهم ، وغاب آهتهم ، وسفه أحلامهم ، لقد وقف منهم موقف المناظرة ، يرخى العنان للخصم ليلقمه بالحجارة في حلقه ويفحمه ، ويزهق باطله ، ويرسل قذائف الحق تدمر مواقع الباطل ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (٣) .

لقد قال لقومه عندما جن غلبه الليل ، وأرخى سدوله ، رأى كوكبا فقال لقومه على سبيل الفرض الجدلى توصلاً إلى الحق : هذا ربي ، فلما غاب ذلك الكوكب قال إبراهيم : لأحب الأفلين ، أى ما كان ينبغي إن كان هذا الكوكب معبوداً أن يأفل ويغيب ، فما الذى غيبه ؟ إن الذى غيبه هو خالقه الذى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً .

ويتنقل إبراهيم عن الكوكب وأفوله إلى القمر ويزوجه وظهوره ، فيقول إبراهيم من باب إرخاء العنان للخصم ، والجدل الموصل إلى الحق : هذا ربي ، فلما أفل وغاب ، قال إبراهيم معرضاً بقومه : لأن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين ، أى من هؤلاء الذين تنكبوا الجادة ، وحادوا عن الطريق المستقيم ، وفي التلميح ما يعنى عن التصريح ، وفي الإشارة ما يعنى عن العبارة .

فلما انتقل إلى الشمس وقد أشرقت بنور ربها ، قال إبراهيم ، هذا ربي هذا أكبر ، أى أكبر من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس وغابت وطوتها ظلمة الليل ، أعلن إبراهيم النتيجة الصادقة التى لا يمارى فيها إلا كل أفك أئيم ، قال : يا قوم إني برىء مما تشركون .

ثم بين لهم طريق الهدى والرشاد ، والحق والسداد : إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، فهو خالقهما وما فيهما ، بل ﴿ ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ (٤) حنيفاً مائلاً عن الشرك ، وما أنا من المشركين .

فماذا كان جواب قومه بعدما حطم دولة الأصنام ، وسفه تلك الأحلام التى يشغشغ فيها الهواء ، قالوا ﴿ حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ (٥) حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ (٦) .

لا إله إلا الله أحلو بها وحدى ، لا إله إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إله إلا الله يغفر بها ذنبي ، لا إله إلا الله ألقى بها ربي ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، كيف يعبدون غير الله ، وغير الله باطل ، كيف

(١) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٨ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ١٠١ من سورة يونس . (٤) الآية ٤٦ من سورة الأنبياء . (٦) الآية ٦٩ ، ٧٠ من سورة الأنبياء .

يسجدون للكائنات وينسون خالق الكائنات ، ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (١) .

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجره
فانظر وقل من ذا الذى	يخرج منها الثمره
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدره
انظر إلى الليل فمن	أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم	كالدُرر المنتثره
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدره
انظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه	بقوة مفتكره
انظر إلى الشمس التى	جذوتها مستعره
فيها ضياء وبها	حرارة منتشره
من ذا الذى أوجدها	فى الجو مثل الشره

المؤمنون أحق بالأمن

وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا أَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا
لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ
يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

المفردات : ﴿ وحاجه قومه ﴾ : الحاجة المجادلة والمغالبة . وتطلق على ما يدلى به الخصم فى

إثبات الدعوى وعلى رد دعوى الخصم وهى بهذا إما حجة دامغة أو شبهة واهية . ﴿ بظلم ﴾ : المراد به الشرك لأنه الظلم الأكبر .

ها هو ذا إبراهيم قد جاء قومه بالحق ، وأورد لهم البينات من الحجج الدامغة والأدلة القاطعة ، حيث تمشى معهم ، ونزل إلى مستواهم ، وفى النهاية أثبت أن الله الذى فطر السموات والأرض هو المعبود بحق لا إله إلا هو . وحاجه قومه بأوهى الحجج ، وأتوا بشبهات هزيلة لا تنهض دليلاً إلا عند الذين ختم الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ، فقد قالوا : إنا نتخذهم آلهة تقربنا إلى الله ، وتشفع عنده ، ونحن قد وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، وإياك يا إبراهيم والآلهة واحذرهم فإننا نخاف عليك منهم قال إبراهيم : أتحتاجونى فى الله ، إن هذا لشيء عجيب ، كيف ذلك ؟ والله خلق السموات والأرض وله ملكوت ، لا يحيط به إلا هو ، وهو القادر على كل شيء ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا ترى ، بل هى مخلوقة لكم ، ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (١) . أتحتاجونى فى الله وقد هداني إلى سواء السبيل ، ولا أخاف هذه الأصنام أبداً ، فهى لا تنفع نفسها ولا غيرها ، ولا تضر ، وكيف أخاف ما تشركون به ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا لا أخافهم فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله ربي وربكم لى شيئاً من الألم . أو الضر ، فينزل بى ما يشاء ، كأن يقع على صنم فيصينى ، أو ينزل شهاب من السماء فيحرقنى كل ذلك بمشيئة الله وحده ، أما أن لهذه الأصنام شيئاً فى أنفسها أو فى غيرها ، فهذا شيء لا يدور بخلد عاقل ولا ينطق به إنسان كامل . أعميتم فلا تتذكرون شيئاً أصلاً ، حتى تسووا بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله واهب الوجود وبين الحجر أو الكواكب المخلوقة .

عجباً لكم كيف أخاف آلهتكم التى ينادى العقل الحر بأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تخافون إشراككم بالله غيره ، وقد قامت الحجج العقلية والنقلية على أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد . وإذا كان هذا هو الواقع فأينا أهدى سبيلاً ، وأحسن رأياً ، وأقوم قيلاً ، وأحق بالأمن وعدم الخوف ، إن كنتم من أهل العلم والعقل والفكر الحر-الذين آمنوا أحق الناس بالأمن والطمأنينة ، لأنهم آمنوا بالله ورسله ، وسلكوا طرق العقل والحكمة ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم كالشرك ، أولئك لهم الأمن الكامل التام فى الدنيا والآخرة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، روى البخارى ومسلم (أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه فقال ﷺ ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » (٢) وتلك حججتنا آتيانها إبراهيم حجة له على قومه ، ولا غرابة فى ذلك فالله يرفع من يشاء من عباده ، درجات بعضها فوق بعض ، فهذه درجة الإيمان ، وأخرى درجة العلم ، وثالثة درجة الحكمة والتوفيق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، إن ربك عليم بخلقه .

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٨ ، ٤١) . ومسلم فى الإيمان (١٩٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤) .

إبراهيم أبو الأنبياء ومكانته

ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان
 وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين ﴿٨٤﴾ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس
 كل من الصالحين ﴿٨٥﴾ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ﴿٨٦﴾ ومن
 آباءهم وذريتهم وإخوانهم واجتبتهم وهديتهم إلى صراط مستقيم ﴿٨٧﴾ ذلك هدى الله
 يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴿٨٨﴾ أولئك الذين
 آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفروا بها هتولاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها
 بكافرين ﴿٨٩﴾ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجراً إن هو إلا
 ذكرى للعالمين ﴿٩٠﴾

المفردات : ﴿اجتبتناهم﴾ : اخترناهم واصطفيناهم . ﴿لحبط﴾ : بطل عنهم عملهم .
 ﴿الحكم﴾ : العلم النافع والفقہ في الدين وقيل القضاء بين الناس .

كان إبراهيم عليه السلام أمة ، وكان من القانتين ، وهو من أولى العزم ، وهو أبو الأنبياء ، فما من
 نبي بعده إلا وهو من سلالة ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ (١)
 ووهبنا له على كبر منه وعقم من امرأته ويأس إسحاق ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق
 يعقوب ﴾ (٢) جزاء إيمانه الكامل وإحسانه الشامل ونجاحه في ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل . فإبراهيم
 من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء فهو من سلالة نوح ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ (٣) وهدينا
 من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، فهي ذرية طيبة ﴿ ذرية بعضها من
 بعض ﴾ (٤) وإبراهيم واسطة العقد ، جده نوح ، وأولاده الأنبياء ، وكذلك نجزي المحسنين وهدينا من ذريته
 كذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين ، وهدينا من ذرية إسماعيل ابنه لصلبه ، وجد
 المصطفى ﷺ ، إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على عالمي زمانهم . وهدينا بعض آباءهم
 وذرياتهم وإخوانهم ، إذ لم يكن الكل مهدياً إلى الخير ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما
 النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (٥)

(١) الآية ٢٦ من سورة الحديد . (٢) الآية ٨٤ من سورة الأنعام . (٣) الآية ٢٦ من سورة الحديد .
 (٤) الآية ٧١ من سورة هود . (٥) الآية ٣٤ من سورة آل عمران .

ولقد اجتبناهم واخترناهم، وخصصناهم بمزايا كثيرة، وهديناهم صراطاً مستقيماً ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ولو أشركوا بالله شيئاً لكان جزاؤهم أن تحبط أعمالهم ، إذ توحيد الله سبحانه وتعالى هو المزكى للنفوس ، المطهر للأرواح ، هو أساس الثواب ، ومناطق الأجر ، فإذا انهار الأساس فلا يبقى معه ثواب للعمل أصلاً ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ (١).

أولئك المذكورون جميعاً ينهلون من معين واحد ولهم رسالة واحدة هي إرساء قواعد التوحيد في الدنيا لله سبحانه وتعالى ، وإن اختلفت في الشكل وطرق الأداء والمعجزات تبعاً لظروف كل زمن وأمة ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى ، وآتيناهم الحكم والعلم والفهم الصادق والنبوة ، ولاشك أن كل نبي كذلك ، إذ أساس النبوة والعلم والفقه والفهم والفظانة .

فالنبوة قيادة وزعامة في الدين والدنيا ، وهل تتم بدون هذا ، أما الحكم بمعنى فصل القضاء والحكم بين الناس فلم يعط لكل نبي ، وهذه مراتب الفضل فيهم فكل من أوتي الكتاب أوتي الحكمة والنبوة ، وكل من أوتي النبوة أوتي الحكم ، وليس كل من أوتي النبوة أوتي الكتاب فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة التي أوتيت كلها لك يا محمد فإن يكفر بها كفار قريش فقد وكلنا بعنايتها ، ووقفنا للإيمان بها والعمل على خدمتها ، والدعوة إليها ، قوماً كراماً ليسوا بكافرين بها ، والمراد بهؤلاء القوم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أولئك الذين هداهم الله ووقفهم ، فهم أئمة الدين وأعلام الهدى فبهذا هم هذا اقتد يا محمد ، وقد جمع جميع خصالهم في الخير فكان خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، قل لهم لا أسألكم على القرآن أجراً ولا منفعة خاصة ، وما هو إلا ذكرى للعالمين ، وهدى للمتقين .

إثبات رسالة الرسل وأثرها

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِينَ تُبَدُّونَهَا وَيَخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٢﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ وما قدروا الله ﴾ : يقال قدرت الشيء عرفت مقداره ، والمراد ما عرفوا الله حق المعرفة . ﴿ قراطيس ﴾ : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق أو غيره . ﴿ مبارك ﴾ : كثير البركة . ﴿ أم القرى ﴾ : المراد بها مكة المكرمة .

قوله تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ : أى ما عرفوه حق معرفته وما وصفوه بما يليق بذاته ، فقد وجب له كل كمال ، واستحال عليه كل نقص . فهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . ومن مظاهر عدم معرفتهم بقدرته أنهم أنكروا الرسالات السماوية المنزلة على أنبيائه وصفوة عباده : ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فقد جعلوا من البشرية منطلقاً لإنكار الرسالات ، كما قال سبحانه فى بيان ذلك ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾^(١) .

وقد أنكر الله عليهم هذه المقولة ، قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾^(٢) . قال الكافرون : ﴿ إن هذا لساحر مبين ﴾ . وجاء الرد من الله تعالى صريحا واضحا على ما قالوه من إنكار الرسالات وإنزال الكتب . فقال سبحانه : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾^(٣) . إن الذى أنزله هو الذى أنزل القرآن على محمد .. وكما وصف الله تعالى التوراة بأنها هدى ونور ، فقد وصف القرآن بأنه روح ونور . قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾^(٤) فالروح يحيى الموات والنور يبدد غياهب الظلمات .

أشرق النور فى العوالم لما	بشرتها بأحمد الأنبياء
جاء للناس والسرائر فوضى	لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع الله	والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ضياءً	يهدى بها من يشاء
ولجبريل جئمة وذهاب	وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت سنة النبيين والرسول	كما ينسخ الضياء الضياء

وقد نعى الله تعالى على القوم أنهم جعلوا من التوراة قراطيس ومفردها قرطاس ، وهو ما يكتب فيه . ونقلوا من الأصل إلى تلك القراطيس جملا ، أظهروا بعضها وأخفوا كثيرا منها . والويل كل الويل لهؤلاء . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾^(٥) .

(١) الآيات ٩٤ ، ٩٥ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام . (٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢ من سورة يونس .

لقد بشر الله تعالى في التوراة ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ووصفه في التوراة ببعض صفته في القرآن . قال له في التوراة (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين . أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، وليس بفظ ولا غليظ ، ولا صححاًب في الأسواق . ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا « لا إله إلا الله » فيفتح أعينا عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً) ومع ذلك البيان الواضح الصريح ، فإن اليهود أخفوا صفته ﷺ في التوراة وكتموها . قال تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾^(١) .

وقل لهم يا محمد : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ . هو الذى بعث في الأمين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾^(٢) .
إنهم يعرفون هذا كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يجادلون في الحق بعدما تبين لهم . وتأقى الإجابة بعد ذلك في قوة ووضوح ، فيخاطب الله رسوله قائلاً : ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهذه إجابة عن سؤال سبق : ﴿ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾ أى الله هو الذى أنزله . قل هذا ودعهم يلعبون في خوضهم وعبتهم ، كما يلعب الصبية ويخوضون .

قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ﴾ والمقصود به القرآن الكريم . ففيه البركة والهدى والشفاء والرحمة والضياء . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ومن أوصاف هذا الكتاب الكريم أنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب لأنها تنبع من مشكاة واحدة . وأنزلناه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والمقصود بأمر القرى مكة المكرمة ، فإن موقعها على وجه البسيطة يمثل مركز الدائرة ، ومن حولها . فالإنذار شامل والرسالة عامة للعالمين . فقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث رسول الله ﷺ لكل أحمر وأسود . ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾^(٣) ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾^(٤) . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾^(٥) .
﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ هذه شهادة حق من الملك الحق لقوم امتلأت قلوبهم بنور اليقين ورسخت العقيدة في أفئدتهم بحيث تزول الجبال ولا تزول العقائد . وهكذا الإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً . فبينما يحدثنا الكتاب الكريم عن قوم لجوا في طغيانهم يعمهون ، فهم في ريبهم يترددون . وأصروا واستكبروا استكباراً ﴿ وقالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ يجد هنا فريقاً شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ،

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ١ من سورة الفرقان . (٣) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢ من سورة الجمعة . (٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

آمنوا بالآخرة ، ومن آمن بالآخرة فقد آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . إذ أن العلم بالآخرة إنما جاء عن طريق الله ورسله وكتبه ومن هنا فإنهم يؤمنون بالكتاب ومن آمن بالكتاب أقام حدوده ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، وامتنل أمره واجتنب نهيهِ ، ومن أول الأوامر بعد التوحيد المحافظة على أداء الصلوات ، إذ هي مفتاح الجنة ، من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة . ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف .

عاقبة الافتراء على الله

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُُمِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾

المفردات : ﴿ افترى ﴾ : اختلق الكذب . ﴿ غمرات الموت ﴾ : واحداها غمرة وهي الشدة . غمرات الموت سكراته . ﴿ باسطوا أيديهم ﴾ : مادوا أيديهم . ﴿ الهون ﴾ : والهوان : الذل الهون اللين والرفق . ﴿ خولناكم ﴾ : أعطيناكم ومنحناكم ، والخول الخدم والحشم ﴿ بينكم ﴾ : هو بمعنى الصلة أو هو ظرف والاتصال مفهوم من الكلام . ﴿ ضل ﴾ : أى غاب

قوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ : الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفي أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله وقد خاب من افترى . فلا أحد أظلم ممن ادعى لله صاحبة وولداً ، أو أن له شريكاً في ملكه ، فإنه سبحانه قد تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في أفعاله لا شريك له ، واحد في صفاته لا شبيه له ، ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ، أليس في جهنم مثوى للكافرين .

كذلك لا أحد أظلم ممن قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء ، وذلك كمسيلمة الكذاب ومن سار على دربه من دعاة الضلال ، الذين ادّعوا الرسالة ، وقالوا إن محمداً ختم النبوة ، ولم يختم الرسالة ، وكذبوا ، إذ لا نبوة بلا وحي ولا رسالة بلا نبوة فالنبوة أعم من الرسالة . فإذا كان سيدنا محمد ﷺ قد ختم النبوة

وهي الأعم فإنه يكون قد ختم الرسالة وهي الأخص .. وهؤلاء الكذّابون بأى شيء نزل الوحي عليهم؟ إن قالوا بغير الإسلام قلنا لهم: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (١). وإن قالوا: إن الوحي نزل عليهم بشرع الإسلام قلنا لهم: لقد أكمل الله الدين وأتمّ النعمة ورضى لنا الإسلام ديناً أقبالاً يؤمنون وبنعمة الله يكفرون؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً، كذلك لقد خاب وخسر هؤلاء الذين قالوا: سننزل مثل ما أنزل الله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ (٢). إنه الخسران المبين والإفلاس الروحي الشنيع ماصير هؤلاء الكذّابين؟ قال تعالى: ﴿ ولو ترى إذا الظالمون في غمرات الموت ﴾ أى شدته وسكراته ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ أى العذاب .

قال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (٣).

وتقول لهم الملائكة على سبيل التحدى: ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ أى أخرجوها من العذاب وما كان لهم أن يستطيعوا ذلك . إن العذاب يبدأ من الموت . قال تعالى ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ والهون هو الهوان والذل ، ذلك بما كنتم تقولون على الله غير الحق فافترت عليه الكذب ، وللكذب صور كثيرة لا تكاد تحصى ، فهو ظلّامات بعضها فوق بعض .

﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ والكبر غمط الناس وبطر الحق ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر وفي هذه الآية الكريمة من الأحوال وقت احتضار الظالمين ما تنخلع له القلوب وتنفطر من هول الأفتدة ، والناس عند الاحتضار لهم مشاهد ومواقف تختلف باختلاف الإيمان والكفر . وفي هذا المقام وردت أحاديث كثيرة :

— عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، قلنا : يارسول الله كلنا يكره الموت ؟ قال : ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه ، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشر ، أو ما يلقي من الشر فكره لقاء الله لقاءه ﴾ . (رواه الإمام أحمد)

— روى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عودينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال : ﴿ استعيذوا بالله من عذاب القبر ﴾ مرتين أو ثلاثاً . ثم قال : ﴿ إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها وفي يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الخنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملام من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول : ربي الله فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال . فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي كنت يسرك . هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير فيقول أنا عمك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال : فتفرق في جسده فينتزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملام من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمي بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالنشر فيقول أنا عمك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة (١)

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٢٤) . والترمذى في التفسير (سورة ١١٣ ، ١١٤ : ١) . والإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ . هذا إخبار منه تعالى لهؤلاء الذين كذبوا على الله وقالوا افتراء عليه إنه قد أوحى إلينا ، أو قالوا سننزل مثل ما أنزل الله ، وذاقوا عذاب الهون وهم في غمرات الموت ابتداء ، وسوف يخلدون في العذاب بما كانوا يقولون على الله غير الحق ، وكانواعن آياته يستكبرون ، لقد خرجوا من الدنيا ولم يأخذوا منها شيئاً ، ومن الذى سيأخذ من الدنيا إلا عمله ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أى حفاة عراة غرلاً ﴿ وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم ﴾ فلم تأتوا من الدنيا بشيء ، ولم تأخذوا منها فتيلاً ولا نقيراً ولا تطميراً . يقول ابن آدم : مالى مالى يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفويت ، ولست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت ، وما عدا ذلك فذهب وتاركه لغيرك كائنا من كان .

لا تركنن إلى القصور الفاخره
واذكر عظامك حين تسمى ناخره
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل
يارب إن العيش عيش الآخره
أزف الرحيل إلى ديار الآخره
فاجعل إلهى خير عمري آخره
فلئن رحمت لأنت أكرم راحما
وبحار جودك يا إلهى زاخره
آنس مبيتى فى القبور ووحشتى
وارحم عظامى حين تسمى ناخره

قوله تعالى

﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ المراد بالشفعاء كل الذين عبدوه من دون الله ، وقالوا إنهم شفاعونا عند الله ، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء نصيباً فيهم من العبادة ، فأشركوهم مع الله هؤلاء ، وأولئك من الذين عبدوا والذين عبدوا ، سيتقطع الوصل بينهم يوم القيامة ، وتنفصل عرى المودة بينهم ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ (٢) وفى موضع آخر يقول تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (٣)

(٣) الآيات ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة البقرة .

(١) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات ٩١ - ٩٣ من سورة الشعراء .

أبعد هذه القطيعة يقولون إنهم شفاعونا عند الله تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت في الحديث القدسي الجليل (أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه) (١) نعم لا إله إلا الله هو المعبود بحق ولا معبود سواه لقد غاب عنهم الشركاء وتبرأوا منهم فيا إلهي تولنا فيمن توليت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت

صور من عظمة الخالق

* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ فَأَنَّى تُؤَفَّكُونَ ﴿٤٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٩﴾

المفردات : ﴿ فالق ﴾ : الفلق والفتق الشق في الشيء . مع إبانة بعضه عن بعض
 ﴿ الحب ﴾ : الثمر يكون في الأكمام والسنبل ﴿ النوى ﴾ : جمع نواة ما تكون في الثمر والزبيب وما شاكله .
 ﴿ تؤفكون ﴾ : تصرفون ﴿ سكتنا ﴾ : ما يسكن فيه الإنسان مكانا كالبيت وزمانا كالليل وهو المراد .
 ﴿ حسباناً ﴾ : بالحساب والعدد . ﴿ يفقهون ﴾ : الفقه الفهم مع العمق في التفكير .
 ﴿ متراكبا ﴾ : يترام بعضه فوق بعض ﴿ طلعتها ﴾ : الطلع أول ما يبدو ويظهر من الزهر قبل أن ينشق عنه الغلاف ﴿ قنوان ﴾ : هو العذق كالعنقود ﴿ ينعه ﴾ : نضجه واكتماله

إن الإله الذي يستحق العبادة والتقديس هو الذي يتصف بهذا ويعمل هذه الأعمال التي يعجز عن أقلها الأوثان والشركاء والأصنام بل والخلق مجتمعين متكئين سبحانه وتعالى جل جلاله .

إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الزرع كالنجم والشجر من الحب ، والنوى ، والحياة هنا بمعنى

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) . وابن ماجه في الزهد (١) . والإمام أحمد في (٣ : ٤٦٦) وفي (٤ : ٢١٥) .

النمو والتغذية ، ولاشك أن الحب والنوى ميت بهذا المعنى ، وبعضهم يتوسع في الحياة ، ويقول إن الحب والنوى فيها حياة بدليل لو عقمنا لما أنبتنا ولكن اللغة لا تساعدهم ، وكانوا يمثلون قديماً بإخراج الحيوان من النطفة أو البيضة ، ولكن العلم الحديث أثبت أن في النطفة حياة ، وكذا في البيضة .

وقيل إن الرأى الصحيح إن الحيوان يخرج بمعنى يتكون من الغذاء وهو ميت ، ويخرج من الحيوان لنبه وفضلاته وهى ميتة ، وكون خلايا الجسم الحى تتكون من غذاء كاللبن والنبات مع عدم الحياة في الغذاء ، دليل على كمال القدرة ، والله مخرج الميت من الحى فيخرج الحب والنوى من النبات الحى ، ويخرج اللبن والفضلات من الحيوان الحى ، سبحانه وتعالى من قادر حكيم عليم ، فكيف تؤفكون : تصرفون عن طريق الهدى والفلاح ، والله فائق الإصباح ، قد فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح عند طلوع الفجر ، وجعل الليل سكناً للحيوان الحى ، يستريح فيه من التعب ، ويسكن جسمه من الألم ، وأعصابه من التفكير والنصب ، والليل وقت سكون وراحة ، والنهار وقت عمل ونشاط ، وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وتقدير وترتيب ونظام محكم لا يختل أبداً لتعلموا بهما عدد السنين والحساب ،

فانظر وفقك الله للخير للآيات الكونية الثلاث : شق الإصباح ، وسكون الليل ، ونظام الشمس والقمر وحسابهما ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾^(١)

وهو الذى جعل لكم النجوم : والمراد بها ماعدا الشمس والقمر مما لا يعلمه إلا هو ، جعلها علامات للسارى ، بها يهتدى للوقت من الليل ، أو من السنة ، ويعرف المسالك والطرق والجهات ، جعلها لتبتدوا بها في ظلمات الليل والماء ، أو المراد ظلمة الخطأ والضلال .

ولما في عالم السماء من صنع وإحكام وتقدير ونظام ، قد فصل الله الآيات القرآنية ، والآيات الكونية ، وهما يدلان على حكم الله وتما علمه ولا يستخرج كل هذا ، ولا يهتدى به إلا أهل العلم والنظر ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾^(٢) ولذا اختتمت الآية بقوله تعالى ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾

هذه آيات الله الكونية في الأرض والسماء وهما ذى آياته في أنفسنا وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً قد خلقكم من ذكر وأنثى ، وجعلكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، وفي هذا إرشاد إلى التواد والمحبة والتعاطف بين الخلق جميعاً ، وإشارة إلى كمال القدرة ، وتمام العلم والحكمة ، خلقكم من نفس واحدة ، ولكم مستقر في الأضلاب ومستودع في الأرحام ، والاستقرار مكث غير محدود بزمن ولا وقت ، وهو أقرب إلى الثبات ، والاستيداع مكث موقوف معرض للرد والرجوع ، ولهذا كان الاستقرار في الأضلاب ، والاستيداع في الأرحام ، وبعضهم عكس ، وبعضهم قال غير ذلك ، والله أعلم .

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢ من سورة الحشر .

قد فصلنا الآيات ووضحناها لقوم يفقهون ، ويقفون على الأسرار الخفية بذكائهم ، وعمق تفكيرهم ، ولاشك أن النظر في الخلق والتكوين الإنساني يحتاج إلى دقة ونظر وفهم .

وهاهى ذى آياته التكوينية فى النبات .

وهو الذى أنزل من السحاب الذى فى السماء ماء ، فجعل منه كل شىء حى ، فأخرج به المولى جل شأنه نبات كل صنف من الأصناف ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، ولكن الشكل والطعم مختلف ، سبحانك يارب ، أنت القوى القادر ﴿ تسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض فى الأكل ﴾ (١) فى الشجرة الواحدة ، ثم حسن ، وآخر ردى .

ثمر ناضج ، وثمر نبيء ، ثمر طعمه جميل ، وآخر قبيح ، سبحان الله ، أليس هذا من دلائل الوجدانية والقدرة ، فأخرج الله من النبات شيئاً غضاً أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات ، وذلك كورق النجم وغصن الشجر ، ويخرج من هذا الأخضر حباً جافاً صلباً متراكباً بعضه فوق بعض فى السنبيل ، أما الشجر فهذا النخل عنوانه ، يخرج من طلعتها قنوان دانية القطوف ، سهلة التناول ، ويخرج الله من النبات الأخضر جنات من أعناب وغيره من الفواكه والثمار كالزيتون والرمان مشتها فى الشكل والورق والثمر ، وغير مشته فى لون الثمر ، وطعمه فمئها الحلو والحامض ، والمزبل منها ماهو كاليوسفى والبرتقال أو كالنارنج ، انظر إلى ثمر ما ذكر نظرة اعتبار وفحص إذا أثمر النبات ، وكيف يصير هذا الثمر من درجة إلى درجة حتى يصل إلى كمال نضجه ، وتمام منفعتة ، وكيف يكون الثمر أجوف فارغاً ، ثم تمتلئ بالخير والبركة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون بالله ، أو فىم الاستعداد لذلك .

الرد على المفترين

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَنۢى يَكُوۡنُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمۡ تَكُنۡ لَهُ صَحِیۡبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَیۡءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَیۡءٍ عَلِیۡمٌ ﴿١٠١﴾ ذٰلِكُمۡ اِلٰهُ رَبُّكُمْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَیۡءٍ فَاَعْبُدُوۡهُ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَیۡءٍ وَكِیۡلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْاَبۡصُرُ وَهُوَ یَدْرِكُ الْاَبۡصُرَ وَهُوَ اللّٰطِیۡفُ الْخَبِیۡرُ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ خرقوا ﴾ : خلق وخرق واخرق كلها بمعنى واحد ، قال الراغب : الخلق فعل الشىء على تدبير ورفق ﴿ والخرق ﴾ : قطع الشىء على سبيل الفساد . ﴿ بدیع ﴾ : مبدع على غير مثال سابق ومنه البدعة لأنه لا نظير لها ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ : الإدراك اللحاق والوصول إلى الشىء أشرك الناس بالله شركاء من دونه وأقسم إبليس : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وقد

عبدوا الملائكة وقالوا : إنها بنات الله ، وأطاعوا الشياطين في أمور الشرك بالله ، وقال المجوس : إن للخير إلهاً وللشر إلهاً هو إبليس ، وذلك قوله تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ .

والله وحده خلقهم وما يعبدون ، فكيف سواه ، واختلق بعض الناس بجهلهم وحماتهم بنين لله وبنات ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، فقد قالت اليهود : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وقال المشركون من العرب : الملائكة بنات الله .

كيف يكون ذلك ؟ والله مبدع السموات والأرض وما فيهن ، فهو الخالق البارئ المصور ، كيف يكون له ولد ؟ ولم تكن له صاحبة ، والولد لا يلد فيه من تزواج وتناكح ، وهل يعقل أن تكون له صاحبة تجانسه وتشاكله ، وهو المنزه عن المثل والشريك : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾^(١)

وكيف يكون له ولد ؟ وقد أقر الكل بأنه خلق السموات والأرض ، أفيكون في حاجة إلى ولد وله كل شيء ، سبحانه وتعالى ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خلق كل شيء فاعبدوه وحده فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، الخالق البارئ ، فاطر السموات والأرض ومبدعهما ، وهو على كل شيء قدير ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، ولا تراه رؤية إحاطة وشمول حتى تعرف كنهه وتحيط به ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾^(٢) .

والآية الكريمة لا تنفي الرؤية التي وردت بها الأحاديث الصحيحة والله يدرك الأبصار : يراها ويدرسها ويقف على حقيقتها وكنها ، وإلى هنا لم يعرف أحد حقيقة الضوء ، أو حقيقة البصر ، ولماذا لم تر الأذن ، ولم تسمع العين ؟ ولماذا كان عصب العين ينقل إشارة الرؤية ؟ وعصب السمع ينقل إشارة السمع ؟ ولكن الله وحده هو الذى يدرك الأبصار ويعلمها ، وهو اللطيف بذاته ، الخبير بدقائق خلقه وخفاياهم .

الطريق واضح

قَدْ جَاءَكُمْ بِبَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾
 وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَعَالَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَتَسْبَعُ مَا أُرْحَى إِلَيْكَ
 مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ
 عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ بصائر ﴾ : جمع بصيرة وتطلق على العقيدة القلبية وعلى المعرفة الثابتة ، والحجة البينة ، ويقابلها البصر الذى يدرك به الأشياء الحسية . ﴿ عمى ﴾ : المراد بالعمى هنا الضلال الدال على

الحيرة . ﴿ حفيظ ﴾ : رقيب . ﴿ درست ﴾ : أى قرأت وفى الحديث « كان يدارسه القرآن » ومنه الدرس والمدرسة وهى تشير إلى التذليل بكثرة القراءة .

بعدما يبين الله سبحانه وتعالى من الآيات البينات التى نشرها فى الأفق والأنفس ، وأدحض حجج الذين جعلوا له شركاء ، وأثبت أنه الواحد المتصرف المالك القادر الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار . بعد هذا البيان الشافى الكافى الوافى : قال تعالى ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ أى قد جاءكم من البراهين والآيات على تلك القضية نتائج لا تختلف ولا تتخلف ، فقال سبحانه ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ أى من اهتدى إلى النور وسار وراء موكب الهداية الربانية ، وانتفع بشمس العناية الإلهية ، فإنما ذلك كله لنفسه ، ومن عمى وضل عن السبيل ، وتنكب الجادة ، وحاد عن الصراط السوى ، فعلى نفسه ، إذ المسئولية هنا فردية ، كل امرئ بما كسب رهين ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

يلقى الولد أباه يوم القيامة فيقول : يا أبت لقد كنت بك برا ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقاً ، فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثدىي لك سقاء فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . اقرأوا إن شئتم ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ (١) .

فبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قل لهم ذلك يا محمد وأبلغهم إنك لست عليهم بحفيظ ولا بربق . ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم تحشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٢) .

(٢) الآيات ١٢٣ - ١٢٧ من سورة طه .

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .

قوله تعالى ﴿ كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أى ومثل ذلك الذى سبق من البيان والتوضيح نصرف الآيات وننوعها ، من وعد ووعيد ، وخوف ورجاء ، وقصة وعقيدة ، وأحكام وبيان ، لما بعد الموت لنقطع المعاذير ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾^(٦) وليقولوا لقد قرأت علينا وبلغتنا إن لم يقولوها بلسان المقال ، فسيقرون بها بلسان الحال ﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ والعلم نور ، فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(٧) قوله جل شأنه ﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ أى التزم بما أنزلناه عليك من الوحي ، واعلم بأن لا إله إلا الله ، وأعرض عن جهلهم وذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيماً ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾^(٨) .

لما نزل على النبي ﷺ قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾^(٩) سأل الصادق المعصوم ﷺ الأمين جبريل عنها فقال جبريل يا رسول الله لا أدرى حتى أسأل رب العزة فلما سأل رب العزة قال له السلام يقرؤك السلام ويقول لك ﴿ صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك ﴾ وهذا هو التفسير الرفيع للخلق العظيم الذى تحلى به سيد الأنبياء ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾^(١٠) .

يخاطبني السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيياً
يزيد سفاهة وأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيباً

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه ومصطفاه ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ﴾ هو كقوله جل شأنه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾^(١١) وقوله ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾^(١٢) . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فلست رقيباً عليهم ، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾^(١٣) فلا تبخع نفسك عليهم من الأسف ، فلست عليهم بوكيل ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتندبر به وذكرى للمؤمنين ﴾^(١٤) .

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------------|
| (١) الآية ٤٨ من سورة الأنعام . | (٦) الآية ١١٨ من سورة هود . |
| (٢) الآية ٩ من سورة الزمر . | (٧) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة يونس . |
| (٣) الآيات ١ - ٣ من سورة الأحزاب . | (٨) الآية ٥٦ من سورة القصص . |
| (٤) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف . | (٩) الآية ٢ من سورة الأعراف . |
| (٥) الآية ٤٨ من سورة الأحزاب . | |

سد الذرائع

وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾ وَنَقَلِبُ أَقْدَابَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١٢٠﴾

جاء في سبب نزول هذه الآية ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ ما روى أن زعماء قريش ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آهتنا ، ولدعوه وإلهه ، وقالوا للنبي ﷺ : لتكفن عن شتم آهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك فنزلت الآية : حرص الإسلام أشد الحرص على سد أبواب الشر وضرب حولها أسواراً عالية وأقام حولها حصوناً مكينة ومن أبواب الشر التي سد الإسلام الطريق أمامها سب آهة المشركين فهي وإن كانت لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر كما قال تعالى ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾^(١) وكما قال جل شأنه ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فإدعواهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها﴾^(٢) .

ومع كون معبوداتهم كذلك إلا أن الله تعالى نهي المؤمنين عن سب تلك الآهة حتى يقطع الطريق على هؤلاء المشركين الذين إذا سمعوا ذلك سبوا الله جل جلاله ، متجاوزين حدود الأدب والأخلاق ، لأنهم جاهلون خفاف العقول سفهاء الأحلام ، وكذلك أي مثل ذلك الذي يفعله الجاهلون زينا لكل أمة عملهم ، وجاء التزيين أثراً وجزاء لما فعلوه من المخالفات لأوامر الله ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾^(٣) ثم إن المصير والمرجع إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون . قوله تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ ، ومن قبائح هؤلاء وما استقر في نفوسهم من الجحود والظلم ، أنهم أقسموا بأغلظ الأيمان وأشدّها ، والجهد والاجتهاد بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ،

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٢) الأيتان ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨ من سورة فاطر .

أقسموا على ماذا أقسموا لكن جاءتهم آية من الآيات التي يقترحونها ليؤمنن بها ، وذلك كما قال تعالى ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعتب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ﴾^(١) فماذا كان الرد ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾ وماذا كان الرد : قل إنما الآيات عند الله القادر الحكيم ، مالك الملك ، وملك الملوك ، ثم لماذا يقترحون هذا ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون .

ولماذا يقولون هذه الحجج الباطلة إنهم لا يقصدون من ورائها إلا اللجاج والعتاد ، وهل إذا جاءت يؤمنون فعلا قال تعالى ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾^(٢) لقد شق القمر بأمر الله فماذا قالوا قالوا إن محمداً سحر أعيننا قال تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾^(٣) .

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾^(٤) .

وقال عز من قائل : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وهل يغيب عنا ما قاله الأقوام السابقون لأنبيائهم ، أو ما قرأت قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾^(٥) .

وحكاية عن المسيح مع قومه ﴿ إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾^(٦) .

كذلك يخاطب الله الجماعة المؤمنة بقوله ﴿ وما يشعر كم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أى حتى لو جاءتهم الآيات التي اقترحوها فما يزيدهم ذلك إلا طغياناً كبيراً ، لذلك كان جزاؤهم اللاتق بهم ، أن يقلب الله أفئدتهم وأبصارهم فلا تستقر قلوبهم على حال ، ولا تثبت أبصارهم على حقيقة ، لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة ، فالقلوب في أكنة تمنعها من رؤية الحق ، وعلى الأبصار غشاوة ، تحجب عنها ضياء المعرفة . ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أى يتحIRON ويتخبطون في ظلمهم وضلالهم جزاء وفاقا ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾^(٧) .

نسأل الله تعالى علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع .

(١) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء . (٤) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس . (٦) الآية ١١٠ من سورة المائدة .
 (٢) الآيات ٢ ، ٣ من سورة القمر . (٥) الآية ٤٩ من سورة الزخرف . (٧) الآيات ٢٧ ، ٢٨ من سورة النبأ .
 (٣) الآيات ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .